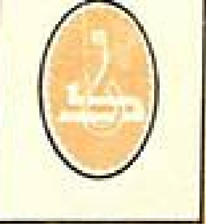


مشاهير قادة الاسلام

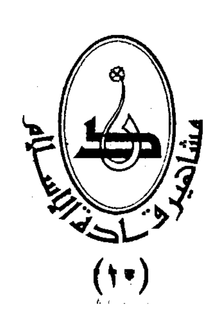
١٠

المظفر قطز

ومعركة عين جالوت

بسّام العسلي

دار النفائس



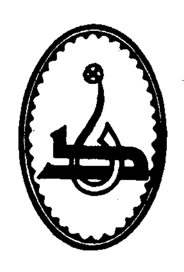
(١٠)

المظفر قطز
ومعركة عين جالوت

بسّام العسلي

دار النفائس


بسم الله الرحمن الرحيم



المظفر قطز
ومعركة عين جالوت

الطبعة الثانية

١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م

بيروت : ص ب ٦٣٤٧ ـ هاتف ٢٥٨٧٣٨ ـ ٣٠١٤٤٧ ـ برقياً: دانفايسكو

المقدمة

بدأت الحملات الصليبية في سنة ١٠٩٩م ، ولما تمض أكثر من تسعين سنة حتى وقعت معركة «حطين» الخالدة بقيادة «صلاح الدين الأيوبي» (٥٨٣ هـ – ١١٨٧م) ومضت فترة ٧٥ سنة أخرى قبل أن تحدث المعركة الحاسمة الثانية في «عين جالوت» (٦٥٩ هـ – ٣ ايلول – سبتمبر – ١٢٦٠م) والمسافة الجغرافية بين «قرون حطين» و «عين جالوت» هي مسافة غير بعيدة (٦٥ كيلو متراً تقريباً). ولقد ارتبط ذكر «عين جالوت» باسم قائدها «المظفر قُطُز» بقدر ما ارتبطت معركة «حطين» باسم قائدها «صلاح الدين». وهناك فوارق كبيرة بين القائدين في كفاءتهما القيادية، وفي دورهما التاريخي. ولكن رغم هذه الفوارق فهناك تشابه أيضاً. إنهما من صنع القدر، وكان قدرهما تسجيل أكبر انتصارات عرفها المسلمون، وهما أيضاً لم يعمرا طويلاً بعد انتصاراتهما، وكلاهما تميز بالتقوى والغيرة على الدين والحماسة للجهاد في سبيل الله.

لقد كان طريق «صلاح الدين» في الجهاد طويلاً وشاقاً، وكان طريق «المظفر قطز» قصيراً، بحيث أنه لولا معركة «عين جالوت»

ولولا انتصاره الحاسم فيها لأغفل التاريخ ذكره وتجاوزه دون اهتمام كبير بحياته القيادية ، ومن هنا يظهر فضل « عين جالوت » على قائدها . ولكن هل كانت «عين جالوت» من صنع «المظفر قطز» ، على نحو ما كانت عليه «حطين» بالنسبة «لصلاح الدين» ؟

قد يكون من السابق لأوانه تقويم دور « المظفر قطز » في « عين جالوت » . إذ أن ذلك الانتصار الحاسم للمسلمين لم يحدث إلا بعد أن عمل المسلمون على استنزاف قوة التتار في معارك متتالية كما أن المقاومة السلبية التي جاءت بعد المعركة – أو مجموعة المعارك الإيجابية – قد جعلت قوات التتار تسير في فراغ مما يساعد على مباغتتها وتدميرها . علاوة على أن فلول قوات العرب المسلمين التي انسحبت من وجه التتار بعد معاركها المتتالية انضمت إلى قوات مصر وكلها حماسة للجهاد في سبيل الله مما دعم من موقف « المظفر قطز» وزاد من قوته . **ويظهر بوضوح أن النصر كان من نصيب المجاهدين الصابرين المحتسبين في سبيل الله ، فهم الذين مهدوا للنصر الحاسم وهم كثيرون – الله بهم أعلم – ولو أغفلت أسماءهم كتب التاريخ .**

من هنا تظهر ضرورة الأخذ بمعركة « عين جالوت» في إطار الجهاد ضد القوى المشتركة (الفرنج والتتار) والتركيز على الوضع العام والوضع الخاص أكثر من التركيز على المعركة ذاتها ، وهذا ما يبرز بدوره أيضاً أهمية هذه المعركة في الإطار التاريخي الذي أحاط بها . وإن ذلك لا ينتقص من دور القائد « المظفر قطز »

بقدر مـا يعطيه حقه – قدر المستطاع – والقضية – بعد ذلك وقبله – ليست قضية – تقويم للحقوق والواجبات بقدر ما هي عملية عرض للأحداث بهدف استخلاص أهم الدروس وأكثرها فائدة مما ضمه التراث الخالد . حيث يبقى معلم التاريخ من أصدق المعلمين للأجيال وأكثرهم صفاء وإخلاصاً. وتتعاظم الحاجة للتعلم من صفحات التاريخ ، في كل مرة تتعاظم فيهـا الأخطار المحيطة بالأمة ، حيث تجد في تشابه الظروف ما يعينها على الخروج من المآزق التي تجابهها ، والانتصار على ذاتها وعلى غيرها . ذلك هو الهدف الكبير من دراسة التاريخ .

والله أسأل التوفيق.

بسام العسلي



ابرز الأحداث ما بين حطين وعين جالوت

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٥٨٣ هـ	١١٨٧	معركة حطين وفتح بيت المقدس .
٥٨٥–٥٨٨	١١٨٩–١١٩٢	الحملة الصليبية الثالثة .
٥٩٦–٦٠١	١١٩٩–١٢٠٤	الحملة الصليبية الرابعة .
٦٠٠	١٢٠٣	ولادة تيموجين ، الذي عرف فيما بعد باسم جنكيز خان ، واعتباراً من عام ١٢٠٦ – وهو مؤسس إمبراطورية المغول .
٦١٥	١٢١٨	حملة الفرنج (الصليبيين) على دمياط في مصر.
٦٢٢	١٢٢٥	ضياع لوشة في الأندلس .
٦٢٦	١٢٢٨	ضياع ماردة في الأندلس.
٦٢٧	١٢٢٩	استعادة الصليبيين مدينة « القدس » .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٢٨	١٢٣٠	استيلاء الفرنج على ميورقه (الباليئار) .
٦٣٤	١٢٣٦	موقعة أنيتشه (في الأندلس) وانتصار المسلمين .
٦٣٦	١٢٣٨	استيلاء قشتالة على قرطبة.
٦٤٥	١٢٤٧	استيلاء قشتالة على إشبيليا.
٦٤٣–٦٤٥	١٢٤٥–١٢٤٧	سفارة الفرنج إلى المغول لتحريضهم على المسلمين .
٦٤٧	١٢٤٩	حملة الفرنج على دمياط.
٦٤٨	١٢٥٠	شجرة الدر في مصر ثم المعز (عز الدين ايبك) .
٦٥١	١٢٥٣	الخليفة في بغداد يتوسط في الصلح بين أمراء المسلمين.
٦٥٦	١٢٥٧	المنصور نور الدين علي ابن ايبك يحكم مصر.
٦٥٧	١٢٥٨	المغول يدمرون بغداد .
٦٥٨	١٢٥٩	المظفر سيف الدين قطز يحكم مصر .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٥٩	١٢٦٠ (٣ أيلول – سبتمبر)	المغول يدمرون حلب ودمشق، ويهزَمون في عين جالوت .
٦٥٩	١٢٦٠	مصرع المظفر سيف الدين قطز، وحكم الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري في مصر .



بعض ما قيل في «عين جالوت»

تعتبر معركة « عين جالوت » من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ ، والواقع أنه نظراً لما سبق وقوعه من أحداث على مسافة أربعة آلاف ميل. كان الجيش المغولي في سوريا من الضآلة ما يجعله عاجزاً عن القيام بإخضاع المماليك إلا إذا واتاه الحظ الطيب . ومن المحقق أنه لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة. غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في «عين جالوت» من قرار. فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له . فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر ، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم ، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر قائد التتار « كتبغا » المسيحي ، لازداد عطف المغول على المسيحيين ، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام . على أنه من العبث أن تفكر في الامور التي قد تحدث وقتئذ . فليس للمؤرخ إلا أن

يروي مـا حدث فعلاً ، إذ أن معركة « عين جالوت » جعلت سلطنةالمماليك بمصر القوة الاساسية في الشرقالادنى في القرنين التاليين –وإلىأن قامتالامبراطورية العثمانية– إذ أتمتتقويض المسيحيين الوطنيين في آسيا. فما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامي وإضعاف العنصر المسيحي، لم يلبث أن أغوىالمغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام . وعجلت هـذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية ، لأن المسلمين المظفرين ... أضحوا حريصين على أن يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين .

(تاريخ الحروب الصليبية ٣/٥٣٧ – ٥٣٨)

الفَصــلُ الأوّل

المظفر قطز والطريق الى «عين جالوت»

الحرب طويلة الأمد

آ – الموقف على الجبهة الإسلامية :

١ً – في دمياط – الملك الكامل. ٢ً – الصراعات بين الأيوبيين وإعادة بيت المقدس للصليبيين. ٣ً – الصالح أيوب بعد الكامل. ٤ً – الجيوش الفرنسية في مصر.

ب – الموقف على جبهة الصليبيين :

١ً – الحملة الصليبية الثالثة. ٢ً – الحملة الصليبية الرابعة (تدمير الإمبراطورية البيزنطية). ٣ً – الحملة الصليبية الخامسة (حملات الأطفال). ٤ً – الاتصالات مع التتار (الصليبيون والتتار). ٥ً – الأرمن والتتار.



الحرب طويلة الأمد

« انفروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالِكم وأنفسِكم في سبيل الله ذلِكمُ خيرٌ لكم إن كنتمْ تعلمونْ ».

(سورة التوبة – آية ٤١)

انطلقت جيوش التتار المغول من قلب آسيا وهي تجتاح في طريقها كل ما يصادفها – كالإعصار المدمر – ولا تترك وراءها سوى الموت والدمار. وتصل العاصفة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية (بغداد) فتعمل فيها تدميراً وإحراقاً ونهباً . ويخاف قائد التتار على جنده من أوبئة الموت التي رفع جنده راياتها على مدينة الحضارة العريقة، فيأمرهم بمغادرتها. وتمضي جيوش التتار نحو عاصمة الشمال في بلاد الشام (حلب) وتحاول حاضرة المسلمين الصمود لهذه الغزوة البربرية ، وهي التي اكتسبت قدرة على الصمود بحكم موقعها الجيواستراتيجي وتعرضها الدائم لهجمات الطامعين. ولكن قدرة الصمود تتجاوز الحدود فتجتاح جائحة التتار هذه الحاضرة الخالدة وتنطلق نحو الجنوب حتى تصل دمشق التي تحاول بذل ما بذلته

شقيقتها في الشمال. وتنجح قوات البرابرة مرة أخرى في اجتياح عاصمة المسلمين. ويظهر للفرنج (الصليبيين) أن هذا العالم الإسلامي الذي ناصبوه العداء وبادؤوه بالحرب قد أوشك على الانهيار دفعة واحدة تحت سنابك هؤلاء المتوحشين الذين ما عرفوا من أسباب الحضارة سوى فن الحرب والقتال. وانقسم هؤلاء الفرنج بين شامت ينتظر نهاية المسلمين على أيدي هؤلاء الغزاة القادمين من الشرق، وبين خائف من بطش البرابرة – الذين ارتبطوا معهم بمواثيق تحقق الهدف المشترك – وهو القضاء على المسلمين. وكان مصدر خوف هؤلاء هو عدم الثقة بالبرابرة الذين لا يمكن أن تقف أمام مطامعهم حدود ولا سدود، ولا يمكن أن تقيد أعمالهم مواثيق أو عهود. في حين أنهم ألفوا من المسلمين نوعاً من التعامل الذي تحدده ضوابط وأسس وقواعد. ومقابل ذلك، ظهر للمسلمين أنهم أمام موقف لا عهد لهم به ولا قبل لهم بدفعه منذ ظهور الإسلام. فهؤلاء الصليبيين وقد أقاموا إمارتهم في الموقع المتوسط من فلسطين لتكون كالمدية التي تستنزف دماءهم وقدراتهم، وهؤلاء التتار وقد أزالوا لهم خلافتهم واستمروا في القضاء على بقية مواقعهم وحواضرهم. ووسط هذه الظلمة المرعبة التي هيمنت على عالم الإسلام والمسلمين انبثق نور الضياء من قلب مصر ليبعث الأمل في النفوس التائهة، وليبدد ظلمة الليل الطويل الذي عاشته بلاد المسلمين. كان ذلك عندما وقف (أتابك) من المماليك اسمه «المظفر قُطُزْ» توافرت له بعض أسباب القوة، وتوافر له قدر أكبر من الإيمان، فوقف بعناد يرفض التحدي الجديد.

وانطلقت الجيوش من مصر تتحسس طريقها عبر سيناء، وتستبق الزمن وهي تسعى للقاء الأعداء. ولم يكن باستطاعتها انتظار هؤلاء الأعداء حتى يصلوا إلى حدودها، وبعد مسيرة طويلة وشاقة، وبعد مرحلة من التحركات ـ التمهيدية ـ حدث اللقاء في «عين جالوت» قرب الناصرة، وغير بعيد كثيراً عن «حطين» حيث سبق أن شهدت قوات المسلمين أول انتصار حاسم لها على غزاة الغرب. هناك، في «عين جالوت» وقعت المعركة الحاسمة الثانية، وكانت هذه المعركة بدورها شبيهة بسابقتها. اشتباك قصير وحاسم ومعركة دامية انتهت بالظفر لمصلحة المسلمين. وزال القلق على مستقبل الإسلام والمسلمين. خيط رفيع كان يفصل بين الوجود والفناء، وانتصر الوجود على الفناء. واستثمر المسلمون هذا الظفر وأفادوا منه، فانطلقوا والثقة تملأ نفوسهم والإيمان يعمر قلوبهم لحرب أولئك الفرنج الذين تعاونوا مع التتار. وكانت حرباً مريرة على جبهتين. وكان كل انتصار على إحدى الجبهتين يعزز القدرة القتالية لتطوير الجهاد على الجبهة الأخرى. ومن قلب الهزيمة انطلق النصر، وظهر الأمل من قلب اليأس، وكتب المسلمون صفحات جديدة من صفحات الجهاد الناصعة التي حفظت لهم وجودهم وتراثهم وعقيدتهم قبل كل شيء، وأهم من كل شيء في وجودهم وتراثهم.

هنا، تظهر نقطة بارزة سبق لها أن أشرقت في معركة حطين أيضاً، وهي أهمية الحدث التاريخي بالقياس مع مقدماته ونتائجه. إذ كثيراً ما يظهر حدث من الأحداث فيتألق بسرعة ثم يخبو

بمثل السرعة التي ظهر فيها ويزول ، ومقابل ذلك فإن كثيراً من الأحداث ـ العسكرية وغير العسكرية ـ تظهر بصورة صغيرة ثم لا تلبث أن تتعاظم في حجمها بسبب التطوير المستمر لهذه الأحداث، واستثمار كل نجاح من أجل التمهيد لنجاح آخر. وبما أن المجال هنا متعلق بمعركة محددة ـ هي معركة عين جالوت ـ فإن الأهمية فيها لا تكمن في النجاح الرائع الذي أمكن إحرازه فوق أرض المعركة بقدر ما يتعلق باستثمار نتائج النصر لتطوير الأعمال القتالية لإحراز مزيد من الانتصارات . وعند هذه النقطة تكمن مفارقة مذهلة، فقد كان قائد المعركة وبطلها هو « المظفر قطز » ، إلا أن هذا القائد لم يعمر طويلاً ليستثمر انتصاره ، ومات غيلة على يد أحد قادته «بيبرس البندقداري» الذي لم يلبث أن أصبح حاكماً فعمل على استثمار الظفر، وتطوير الأعمال القتالية طوال الفترة اللاحقة، وهكذا تظهر صعوبة إسناد النصر في العملية بمجموعها للمظفر قطز ـ أو للظافر بيبرس ـ ولعل ذلك هو السبب في إغفال اسميهما معاً، وإبراز اسم «عين جالوت» وحدها، وكأنها معركة مجهولة النسبة، مجهولة الأبوة ، بعكس ما كانت عليه معركة « حطين » التي اكتسبت أبوتها الشرعية بحكم قيادتها واستثمار نتائجها وتطويرها على يد قائدها الأول «صلاح الدين» .

تلك نقطة، وهناك نقطة أخرى لا يمكن تجاوزها أيضاً وهي أن معركة «عين جالوت» لم تكن حدثاً طارئاً وإنما كانت حلقة في مجموعة الحرب طويلة الأمد التي جابهتها أمتنا العربية ـ الإسلامية أيام الحروب الصليبية . ومن هنا تظهر صعوبة فصلها كحدث

مستقل، وتقديمها كنسيج متكامل. ومن هنا فإن المعركة لا تكتسب أهميتها إلا من خلال عرض الوقائع الرئيسية الممهدة لها. وإذا كانت معركة « حطين » ترتبط ببداية الحروب الصليبية ، فإن معركة « عين جالوت » ترتبط بنتائج معركة « حطين »، ومن هنا تظهر ضرورة التركيز على عرض مجموعة الأحداث التي بدأت بيوم « حطين » وانتهت بيوم « عين جالوت ». وقد يكون من المحال اختصار كل الأحداث التاريخية خلال هذه الحقبة الزمنية المتطاولة في مدتها والغنية بوقائعها، ولهذا فقد يكون من الضروري الوقوف عند أبرز معالمها والانتقال فوق أشهر قممها. وعلاوة على ذلك ، فقد كانت مجموعة الأحداث خلال تلك الحقبة التاريخية ، شديدة التشابك والتعقيد إلى درجة مذهلة، وهذا مما يفرض إجراء عملية عزل لمواقف مراكز القوى المتصارعة ـ قدر المستطاع ـ من خلال عرض الموقف العام والموقف الخاص لما سبق المعركة من أحداث متصلة بها ومرتبطة فيها.

مهما كان عليه الموقف، فإن معركة «حطين» الخالدة لم تكن أول المعارك مع الصليبيين، كما أنها لم تكن آخرها ، وكذلك الأمر مع موقعة «عين جالوت» التي لم تكن بدورها أول المعارك مع التتار ولا آخرها . ولكن المعركتين تشتركان بناظم واحد وهو أنهما كانتا نقطة التحول الحاسمة في مسيرة الحرب طويلة الأمد. وقد سبقت كل واحدة منهما وتبعتها مجموعة من الانتصارات والهزائم. ولكن تلك الهزائم لم تكن قادرة على سلب الانتصارات ثمارها، أو إفراغها من أهدافها، وإنما كانت هزائم تكتيكية ـ تعبوية ـ

في إطار انتصارات استراتيجية وهذا مـا حفظ لها خلودها ، وضمن لهـا بقاء قيمتها . وقد لا تكون هناك حاجة مرة أخرى للبرهان على أنه كان من المحال صنع هذا النسيج المتصل من قِبَل قائد واحد أو حتى مجموعة من القادة، **وهذا ما يؤكد مرة أخرى على أن الفضل في صنع ذلك النسيج الممتد على صفحة الحروب الصليبية هو لاولئك الصابرين المجاهدين في سبيل الله .**

آ – الموقف على الجبهة الإسلامية :

كان «الافضل» أكبر أبناء «صلاح الدين الايوبي» شاباً لا يزيد عمره على ٢٢ عاماً عندما وقع والده مريضاً في دمشق . وخاف « الأفضل » أن تتمزق وحدة المسلمين بعد تجمُّع ، وأن تتفرق كلمتهم بعد توحُّد، والعدو لا يزال بإزائهم وسيفه موجه إلى نحورهم، فأسرع إلى أمراء دولة أبيـه يجمعهم ويلزمهم بأداء القسم قسم الولاء لأبيه ومن بعده له [١] ، **ولكن ما أن توفي «صلاح الدين» (٣ آذار -مارس- ١١٩٣م) حتى ظهرت صعوبة في المحافظة على وحدة المسلمين – السياسية – بسبب المطامح الفردية والمطامع**

---

(١) كان نص القسم كالتالي : « أقسم ... أنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي وأخلصت طويتي للملك الناصر «صلاح الدين» مدة حياته، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، ممتثلاً أمره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك « الأفضل» علي . ووالله إنني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي. وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على مـــا أقول وكيل» . (النوادر السلطانية – ابن شداد – الدكتور شيال ص ٢٤٥) .

الانانية . فأعلن العزيز عثمان ـ وكان عمره لم يتجاوز الحادية والعشرين سنة ـ استقلاله بمصر وعدم الاعتراف بسلطة أخيه « الأفضل » وكذلك فعل « الظاهر غازي » ـ الأخ الآخر ـ الذي استقل بإقطاعة حلب . وكذلك الأمر بالنسبة لبقية أمراء الإقطاعات من أبناء « صلاح الدين » وأبناء أخوته ، علاوة على أولئك الأمراء من بقايا الزنكيين الذين كانوا يحكمون إقليم الجزيرة. وكان أخطر ما في هذا الخلاف تحوله إلى صراع مسلح على نحو ما حدث بين حاكم مصر العزيز الذي قام بالزحف إلى دمشق وتهديد أخيه « الأفضل » ، مما دفع هذا إلى الاستنجاد بعمه الملك « العادل » الذي قدم بجيشه من بلاد الجزيرة (حول الرها) فوصل إلى دمشق في أيار (مايو) ١١٩٤ ، وأمكن له إصلاح الخلاف بين الأخويين. ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً ، إذ لم تمض سنة أخرى حتى عاد « العزيز » لغزو أخيه في الشام ، وتدخل العم « العادل » من جديد وأمكن له تسوية الأزمة . ولكن ظهر له أن ابن أخيه « الأفضل » دون مستوى المسؤولية ، فعزله عن دمشق في تموز (يوليو) ١١٩٦ . ومضى « الأفضل » إلى « صلخد » (في حوران) ففرض على نفسه العزلة ، والتزم التقوى والورع في مقره الجديد.

وفي تلك الفترة ، خرج حاكم مصر « العزيز » للصيد ، وسقط من على فرسه أثناء مطاردته لابن آوى قرب أهرام الجيزة ، ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٨ ، ولما كان ابنه « المنصور » صبياً لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره

فقد عمل وزراء « العزيز » على استدعاء « الأفضل » من «صلخد» لتولي الحكم في مصر . وما أن استقر « الأفضل » في مصر حتى وجه جيشه إلى الشام في محاولة لاستعادة دمشق من عمه «العادل» الذي أسرع بجيشه إلى دمشق ـ بعد أن ترك ابنه « الكامل » في «ماردين» الثائرة عليه لإخضاعها ـ ووصل العادل إلى دمشق في الوقت المناسب (٨ حزيران – يونيو– ١١٩٩) ، وعندما وصل « الأفضل» بجيش مصر إلى دمشق انضم إليه جيش حلب بقيادة «الظاهر». وحاصر الأخَوان عمهما لفترة ستة أشهر ، ونجح «العادل» في النهاية من تمزيق التحالف القائم بين ولدي أخيه. ولم تصل سنة ١٢٠٠م إلى نهايتها حتى كان موقف «العادل» قد أصبح قوياً بفضل القوات التي انضمت إليه من جيشَي مصر وحلب ، علاوة على وصول «الكامل» بجيش كبير لدعم أبيه. وقام «العادل» بمطاردة ابن أخيه «الأفضل» حتى مصر ، وبعد معركة قصيرة قرب «بلبيس» ، انتصر «العادل» ، وعاد «الأفضل» إلى «صلخد» ، وقام «الظاهر» بقيادة جيشه من حلب للإفادة من غياب عمه في مصر . ولكن «العادل» ظهر فجأة في دمشق. وأمكن له معالجة الموقف بدهاء وكياسة ، ورجع «الظاهر» إلى حلب بعد أن ضم إليه ـ بموافقة عمه «العادل» ـ «سميساط» و «ميافارقين» ولم تصل سنة ١٢٠١ حتى نهايتها ، حتى كان « العادل » قد نجح في إعادة الوحدة للعالم الإسلامي ، وعيّن ابنه «الكامل» لحكم مصر . وأظهر «العادل» أنه لا يضارع «صلاح الدين» في احترام الناس له . ولكنه يفوقه

في الدهاء والنشاط [1] . وكان « العادل » يتولى منذ عهد أخيه «صلاح الدين» التفاوض مع الصليبيين، ووجد أن من مصلحته عقد هدنة مع الفرنج الذين كانوا في وضع من التمزق الذي يحتاج لهدنة يتم خلالها إصلاح ما بين إمارات الفرنج من خلافات .
وتم عقد هدنة جديدة في أول تموز (يوليو) ١١٩٨م – ٥٩٥هـ لمدة خمس سنوات وثمانية شهور. وحصل الفرنج بموجب هذه المعاهدة على مدينتي جبيل وبيروت مقابل حصول «العادل» على مدينة يافا وعلى أن يقتسم الطرفان مدينة صيدا . وظهرت فائدة هذه المعاهدة بالنسبة للملك «العادل» عند وفاة «العزيز» في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٨ ، حيث أصبح باستطاعته إعادة توحيد العالم الإسلامي وفرض هيمنته على مصر. **ولم يكن باستطاعة «العادل» التحرك بحرية لولا معاهدة الهدنة التي سبق له عقدها ثم عاد إلى تجديدها في أيلول (سبتمبر)** ١٢٠٤م – ٦٠١هـ وفرض الفرنج على

---

(١) يذكر في هذا المجال موقف «العادل» من ولدي أخيه «العزيز» حاكم مصر و « الأفضل» حاكم دمشق في سنة ٥٩١هـ – ١١٩٤م عندما زحف «العادل» مع ابن أخيه «الأفضل» إلى مصر . واصطدما بالمقاومة بـ «بلبيس» وأراد «الأفضل» خوض معركة حاسمة ضد قوات أخيه «العزيز» ، أو المضي إلى مصر ، فعارضه « العادل » وقال لابن أخيه « الأفضل » : « هذه عساكر الإسلام ، فإذا اقتتلوا في الحرب ، فمن يرد العدو الكافر ، وما بها حاجة إلى ذلك ، فإن البلاد لك وبحكمك، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتها قهراً زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء » . ثم إنه عمل في الصلح بعد طول مقام إلى أن تم له ذلك . وعاد «الأفضل» إلى دمشق ، وبقي « العادل » بمصر فترة عند ابن أخيه «العزيز» ، ثم عاد إلى مقره في الجزيرة (الرها) . (ابن الأثير – الكامل في التاريخ – دار الكتاب اللبناني ٩/٢٣٥) .

الملك « العادل » شروطاً جديدة وهي حصولهم على يافا والرملة مع تيسير أمور الحج لمن يقصدون بيت المقدس والناصرة .

كان « ريتشرد قلب الأسد » قد أعلن قبل مغادرته للديار المقدسة بأن مصر هي النقطة الضعيفة في الامبراطورية الإسلامية. وتبعاً لذلك فلا بد من جعل مصر هدفاً للصليبيين . وخلال هذه الفترة من الهدوء النسبي في المشرق كان الغرب يستعد لإرسال الحملة الصليبية الخامسة للتعويض عن فشل سابقتها . ولكن المعاهدة السابقة انقضت في سنة ١٢١٠ ولم يظهر ما يشير إلى اقتراب الحملة الجديدة مما دفع فرنج المشرق على التماس الحصول على معاهدة جديدة أمكن الوصول إليها لتبدأ من تموز (يوليو) سنة ١٢١٢م- ٦١١هـ ومدتها خمس سنوات . وكان الملك «الكامل» - ابن الملك «العادل» ونائبه في حكم مصر- قد عقد معاهدة تجارية مع البنادقة في سنة ١٢٠٨م - ٦٠٥هـ ساعدت على تسلل الأوروبيين إلى مصر بحيث كان في مصر منهم عام ١٢١٥م - ٦١٤هـ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف تاجر أوروبي. واطمأن «العادل» إلى استقرار الأمور، بعد أن بلغ من الكبر ما يجعله يجنح إلى فترة من الهدوء. ولكن الحملة الصليبية الخامسة لم تلبث أن ظهرت في النهاية يوم ٢٤ آب (أغسطس) ١٢١٨م - ٦١٧هـ. وهي تشن هجومها على دمياط. ولم تمض أكثر من أربع وعشرين ساعة حتى استطاع الصليبيون بعد قتال عنيف أن يتخذوا مواضعهم على أسوار حصن دمياط وأن يتدفقوا إلى داخله. وظلت الحامية تقاتل بعناد حتى لم يبق على قيد الحياة إلا مائة رجل أرغموا على التسليم . ووقع في

أيدي الصليبيين ما كان بالحصن من غنيمة ضخمة ، وأقام الغزاة جسراً صغيراً نقلوا عليه هـذه الغنيمة إلى الشاطىء الغربي . ثم قطعوا السلسلة وأزالوا الجسر الذي يعترض القنـاة الرئيسية . فأضحى بوسع سفنهم اجتياز النهر من أجل الوصول إلى أسوار دمياط. وكان الملك«العادل» مريضاً بدمشق حينما جاءه بعد أيام قليلة أنباء سقوط دمياط في أيدي الصليبيين. لقد سمع منذ زمن وجيز أن ابنه « المعظم » استولى على قيسارية ودمرها . غير أن صدمة الـكارثة التي حلت بدمياط كانت أقوى من أن يحتملها . فمات في ٣١ آب(أغسطس)١٢١٨م – ٦١٧هـ، وقد ناهزالخامسة والسبعين من عمره [١] .

---

(١) تقع دمياط على بعد ميلين من مصب نهر النيل، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة ، وكان الأيوبيون قد حصنوا دمياط ، وأقاموا سلـسلة عبر النيل لإعاقة الملاحة فيه ، وكانت هذه السلسلة تمتد من الشاطيء الشرقي حتى البرج القائم على جزيرة قريبة من الشاطيء الغربي على مسافة قصيرة أسفل المدينة، كما أقام الأيوبيون من خلف السلسلة جسراً من السفن . وكانت دمياط قد تعرضت قبل هذا الهجوم إلى هجوم في عام ١١٦٩م ، كما سبق هذا الهجوم أيضاً هجوم آخر في نهاية حزيران (يونيو) ١٢١٨م وحشد «العادل» جيش سوريا لمجابهة هذا الهجوم كما وجه «الـكامل» من القاهرة معظم جيشه، إلا أن قلة عدد السفن أعاقت الهجوم على المواقع التي احتلها الفرنج . وأفاد الفرنج من ذلك للتوقف وتنظيم هجوم بري – بحري استخدم فيه برج على سفينتين أحكم ربطهما معاً بالحبال . وجرت تغطية هذا البرج بالجلود وتزود بالسلالم مما ساعد على نجاح الهجوم التالي ضد أبراج دمياط .

١ً– في دمياط – الملك «الكامل» :

أعاد الملك «الكامل» تنظيم قواته في مصر ، وقام بمجموعة من الهجمات – عبر النيل – في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٢١٨، وكان هناك احتمال للنجاح لولا وصول الجيشين الفرنسي والإنكليزي بكاملها . وكان لا بد من التوقف وانتظار ظروف أفضل ، مع تحصين المواقع والإعداد للهجوم التالي . وفي بداية شهر شباط (فبراير) ١٢١٩م – ٦١٨هـ علم الملك «الكامل» بوجود مؤامرة دبرها له أحد أمرائه (عماد الدين أحمد بن المشطوب) بهدف اغتياله، وبالتعاون مع الفائز – أخ الكامل – وعمل الملك «الكامل» على سحب جيشه من مواقعه قرب دمياط وتوجه بـه إلى «أشمون» في الجنوب الشرقي . وهناك التقى الملك «الكامل» بأخيه الملك «المعظم» الذي جاء بجيش الشام لدعم أخيه ضد الصليبيين . وساعد ذلك الملك «الكامل» على إحباط المؤامرة (في ٧ شباط –فبراير– ١٢١٩) . وأفاد الفرنج من انسحاب «الكامل» فقاموا بهجوم على «العادلية» ، ونجحوا في احتلالها لخلوها من كل مقاومة . وأصبحت دمياط معزولة من كل الاتجاهات . ولم ينجح جيش مصر في إخراج الصليبيين من «العادلية» ، بالرغم من دعم جيش الشام له . مما اضطر الملك «المعظم» للعودة بجيشه إلى الشام ، وتمركز جيش «الكامل» في «فارسكور» على مسافة ستة أميال جنوب دمياط ، بهدف تهديد مؤخرة الصليبيين فيما إذا قاموا بالهجوم على دمياط . وحدثت بعد ذلك معارك دامية لم تتمكن من حسم الصراع . وظهر احتمال المبادلة على بيت المقدس مقابل

انسحاب الصليبيين من مصر، **وأمام هذا الاحتلال، قام الملك «المعظم» بتدمير أسوار القدس وتحصيناتها** (في١٩ أيار—مايو— ١٢١٩) حتى لا يفيد منها الصليبيون. واستمر الصراع المرير في الصيف القائظ الذي جاء في أعقاب الشتاء القارس من تلك السنة، وكان من أبرز المعارك تلك المعركة التي حدثت يوم٢٠ تموز (يوليو) حيث قام المسلمون بهجوم عنيف استطاع الصليبيون إحباطه فيما كانت مناجيق الفرنج تصب حجارتها على دمياط. وكان للنيران الإغريقية التي استخدمتها حامية دمياط دورها في تدمير قوات الصليبيين، لا سيما وأن النبيذ والأحماض التي استخدمها الفرنج لإطفاء الحرائق لم تفدهم شيئاً، وشن المسلمون هجوماً آخر كاد يدمر كل الجيش الصليبي لولا حلول الظلام. ولم تحقق هذه الهجمات بمجموعها أكثر من تكبيد الخسائر الفادحة لقوات الطرفين. وهذا مما أثار الصراع بين قوات الصليبيين التي أتهمت قادتها — بالتراخي وسوء القيادة — وغادر قسم من الصليبيين مصر، وتخلوا عن قضيتهم. وفي نهاية آب (أغسطس) قام الصليبيون بهجوم قوي. وتظاهر المسلمون بالتراجع إلى أن تم لهم تطويق الغزاة التي تكبدت خسائر فادحة، ولم تنجح في الخروج من الحصار إلا بفضل شجاعة بعض القادة والفرسان من الصليبيين.

وفي شهر أيلول (سبتمبر) أرسل «الكامل» وفداً للتفاوض على عقد هدنة قصيرة، مع التقدم باقتراح يظهر استعداد المسلمين للتنازل عن بيت المقدس. وتقرر قبول الهدنة التي لم تستمر طويلاً، فعادت الاشتباكات بين قوات الطرفين. وفي نهاية شهر تشرين

الأول (اكتوبر) سنة ١٢١٩ أرسل « الكامل » فارسين أسيرين ليعرضا على الفرنج شروطاً محددة للصلح تقضي بأنه إذا جلا الفرنج عن مصر، فسوف يعيد إليهم صليب الصلبوت، وسوف يحصلون على بيت المقـــدس وقلب فلسطين والجليل، وسوف لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء النهر، غير أنهم سيؤدون عنها إتاوة. وكان ذلك عرضاً مثيراً للدهشة والقلق، إذ سوف يعيد للعالم المسيحي -بدون قتال- المدينة المقدسة وبيت لحم والناصرة وصليب الصلبوت.

وانقسم قادة الصليبيين على أنفسهم، فقد وافق على العرض بارونات إنكلترا وفرنسا وألمانيا ورفضه بطريرك بيت المقدس وقادة آخرون (الذين اعتقدوا أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار -المسلمين-) ووافقهم قادة الطوائف الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية. **إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة بالجليل، كما أنه من المحال المحافظة على بيت المقدس ما لم تتم السيطرة على إقليم ما وراء النهر**. وبلغ النزاع بين الفريقين من القسوة ما حمل أسقف عكا على الاعتقاد بأن السلطان «الكامل» لم يتقـــدم بعرضه إلا من أجل إثارة المنازعات بين الصليبيين. فتقرر رفض عرض السلطان «الكامل».

كانت حامية دمياط قد تعرضت خلال فترة الحصار الطويل للأمراض والأوبئة، مما اضطر أهل المدينة ذلتها للتسلل بصورة منتظمة ومعهم مَن استطاع الانسحاب ومغادرة المدينة، ولم يشعر الصليبيون بخلو المدينة إلا في وقت متأخر، عندما أعلم المراقبون

قادتهم بأن أسوار دمياط قد أصبحت خالية من الحراسة، وأرسل الصليبيون يوم ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢١٩م قوة قامت بتسلق السور الخارجي ثم السور الداخلي للمدينة بدون أن يتعرضوا للمقاومة . واكتشفوا بداخل المدينة أن المرض نزل بمعظم رجال الحامية ، ولم يتجاوز عدد الأحياء من سكان المدينة ثلاثة آلاف نفس ، بلغ الضعف بعدد كبير منهم ، أنهم لم يستطيعوا مواراة جثث الموتى. **ولم يكد يكتمل الاستيلاء على المدينة حتى تقرر فرز ثلاثمائة من الرجال البارزين واتخاذهم رهائن. أما الاطفال الصغار فجرى تسليمهم الى رجال الدين كيما يتنصروا ويُعَمَّدوا لخدمة الكنيسة**، ومَن تبقى منهم تقرر بيعهم رقيقاً. وتقرر أيضاً توزيع الأموال بين الصليبيين وفقاً لمكانة كل منهم ورتبته . ولم تمنع لعنات المندوب البابوي ، العساكر من السرقة وإخفاء التحف الثمينة، وتشكلت حكومة صليبية في دمياط. وانصرف الطرفان لوضع خطط المرحلة التالية. هذا فيما كان الملك «المعظم» –ملك دمشق– يغير على أطراف الإمارات الصليبية في الشام لتخفيف الضغط عن مصر. وفي آذار (مارس) ١٢٢٠م–٦١٩هـ هاجم «المعظم» قيسارية ، ثم تحرك لحصار عثليت (أحد معاقل الداوية) مما اضطر هؤلاء المشتركين في حملة مصر إلى الإنسحاب والعودة إلى فلسطين للدفاع عن معاقلهم. واستمر الصراع الطويل حتى صيف سنة ١٢٢٠م حيث زج الملك «الكامل» قواته البحرية التي أعاد تنظيمها ودعمها بقطع كبيرة وكثيرة وأنزلها في فرع رشيد ، وتوجه الأسطول المصري بعدها إلى قبرص وعثر على

أسطول للصليبيين راسياً قرب ليماسول فشن عليه هجوماً مباغتاً أدى إلى إغراق كل السفن أو أسرهـا . ووقع في قبضة المسلمين آلاف الأسرى الذين عادوا بهم إلى مصر.

تدهورت الروح المعنوية للصليبيين بعـد الجمود الذي سيطر على الموقف ورجع كثير منهم إلى بلادهم ، ولكن عاملاً جديداً ألقى بثقله لصالح الصليبيين ، فقد وصل نبـأ عن احتمال وصول امبراطور ألمانيا «فريدريك» الثاني إلى مصر، بعد أن كان قد أرسل قوة كبيرة إلى مصر بقيادة دوق « بافاريا » . ونظم ملك دمياط «بيلاجيوس» كل ما أمكنه حشده لخوض معركة فاصلة ضد المسلمين(حتى بلغت قواته ستمائة وثلاثين سفينة مختلفة الأحجام وخمسة آلاف فارس وأربعـة آلاف رام وأربعين ألف راجل) وسار مع الجيش جمع كبير من الحجاج ، ووصل هذا الجيش إلى مواجهـة معسكر المسلمين المتمركزين وراء البحر الصغير الذي يجري من فروع دمياط إلى بحيرة المنزلة. وكان معسكر المسلمين قد أصبح بدرجة كافية من القوة بعد أن وقف جيش مصر بقيادة «الكامل» إلى جانب جيش الشام بقيادة أخيه «المعظم»، وجيش حلب بقيادة الأخ الثالث «الأشرف». وإذ تصادف حدوث ذلك مع فصل الفيضان ، أصبح باستطاعة الملك «الكامل» الإفادة من تفوقه البحري لعزل الصليبيين وتطويقهم منذ يوم وصولهم (في ٢٤ تموز – يوليو – ١٢٢١م) .

وإذ شعر قادة الصليبيين بخطورة موقفهم ، أخذوا في الانسحاب غير المنظم فيما كان فرسان المسلمين يطاردونهم ، ولم تمض سوى

فترة شهر وبضعة أيام (٢٨ آب –أغسطس– ١٢٢١م) حتى ظهرت رسل الصليبيين في معسكر المسلمين وهم يطلبون الصلح . وفرض السلطان «الكامل» شروطه وهي تخلي الصليبيين عـــن دمياط والالتزام بمراعاة الهدنة لمدة ثماني سنوات، وأن يصادق الامبراطور الألماني على معاهدة الهدنة، مع تبادل الأسرى من كلي الجانبين. ويعيد «الكامل» من جانبه صليب الصلبوت . وفي يوم الأربعاء ٨ أيلول –سبتمبر– سنة ١٢٢١م. تحررت مصر بعد حكم صليبي استمر سنتين وسبعة أشهر تقريبـاً . **وانتهت الحملة الصليبية الخامسة دون أن تحرز نتائج حاسمة .**

٢ – الصراعات بين الايوبيين وإعادة بيت المقدس للصليبيين:

عاد الهدوء النسبي ليسيطر على المشرق الإسلامي في أعقاب انتهاء الحملة الصليبية الخامسة ، ومع هــذا الهدوء رجع الخلاف للظهور بين الإخوة الأيوبيين الثلاثة **(الكامل في مصر والمعظم في الشام والأشرف في إقليم الجزيرة)** وشعر «المعظم» أن أخويـه يريدان اقتسام بلاده . ولما كانت الإمبراطورية الخوارزمية قد بلغت ذروة قوتها بقيادة «جلال الدين خوارزم شاه» الذي نجح في رد إغارات التتار عن حدود بلاده، وأضحت امبراطوريته تمتد من أذربيجان إلى نهر السند، وأمكن له نتيجة لذلك فرض هيمنته على الخليفة العباسي في بغداد ، فقد عمل الملك المعظم على طلب دعم «خوارزم شاه»، واعترف بسيادته في العام ١٢٢٦م=٦٢٣هـ، فوجه «جلال الدين خوارزم شاه» جيشاً هدد به مملكة «الأشرف».

وفي هذه الفترة ذاتها، وأمام خطر الخوارزميين، أرسل الملك «الكامل» إلى صقلية أعظم مَن يثق به (وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ) الذي عرض على الإمبراطور الألماني «فريدريك» التعاون مقابل إعادة بيت المقدس. وأظهر «فريدريك» تعاطفه مع هذا العرض، ولكنه لم يقطع وعداً بالمساعدة إذ إنه لا زال يأمل في توجيه حملة قوية ضد المسلمين، ولهذا فإنه أبقى باب الحوار مفتوحاً، وأرسل إلى السلطان «الكامل» رسائل ودية وهدايا رمزية. ولكن الحصول على بيت المقدس كان يتطلب موافقة الملك «المعظم» إذ كانت القدس تابعة له. وعندما توجه وفد صليبي إلى دمشق لمقابلة «المعظم» والحصول على موافقته كان رده: **«إنه ليس من الساعين إلى السلام وإنه لا زال يستخدم سيفه».**

ولكن «المعظم» لم يعمر طويلاً، وتوفي في ١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٢٢٧م=٦٢٤هـ وخلف في حكم دمشق ابنه «الناصر داوود» الذي لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وبادر «الكامل» بالتجهز إلى إضافة أملاكه إلى بلاده، وسار إلى فلسطين. واستنجد «الناصر داوود» بعمه «الأشرف» الذي قدم من الجزيرة. ولما سمع «الكامل» بذلك توقف عن التقدم. وأرسل إليه الملك «الأشرف» يستعطفه ويعرّفه أنه «ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد» فأعاد «الكامل» الجواب، وكان مما قاله: «إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد مَن يمنعهم عما يريدونه. وقد عمروا صيدا

وبعض قيسارية ، ولم يُمنَعوا ، وأنت تعلم أن عمنا السلطان «صلاح الدين» فتح بيت المقدس ، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على مرّ الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر، وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ، ثم إنهم مـا يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت، فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد . ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته . حاشى لله تعـالى » . وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل «تل العجول». فخاف «الأشرف» والناس قاطبة بالشام ، وعلموا أنه إن عاد ، استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه، فترددت الرسل، وسار «الأشرف» بنفسه إلى «الكامل» أخيه فحضر عنده ومنعه من العود إلى مصر ، فأقاما بمكانهما وبقي «الناصر داوود» في دمشق.

كان الإمبراطور الألماني «فريدريك» الثاني، قد غادر قبرص في ٣ أيلول – سبتمبر – ١٢٢٨م ووصل عكا ، وبالرغم من أنه لم يكن يمتلك من القوة ما يساعده على توجيه حملته ضد المسلمين – مع مـا كان عليه معسكر الفرنج من تمزق – إلا أن معرفته بموقف الملك « الكامل» ساعده على توجيه حملة دبلوماسية رافقها بتظاهرة عسكرية. واستمر الاتصال بين «الكامل» و «فريدريك» إلى أن تم الاتفاق على توقيع معاهدة لمدة عشر سنوات بالتقويم المسيحي (أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري) . وفي ١٨ شباط – فبراير – ١٢٢٩م = ٦٢٦هـ وافق «فريدريك»

على معاهدة الصلح ووقعها مع ممثلي «الكامل» (فخر الدين بن شيخ الشيوخ وصلاح الدين أمير إربل) وشهد على المعاهدة مقدم الفرسان التيوتون وأسقفا اكستر ونشستر. وبمقتضى هذه المعاهدة تحصل مملكة بيت المقدس الصليبية على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق (اللد) وينتهي عند يافا على البحر، فضلاً عن الناصرة وغرب الجليل – على أن يظل في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة مع ضمان حرية العبادة للمسلمين [1].

ولقيت هذه المعاهدة المقاومة من المسلمين والمسيحيين، إذ جزع العالم الإسلامي لضياع القدس. وفي دمشق، لقي «الناصر داوود» فرصة لإعلان الحداد العام نتيجة لما تعرض له الإسلام من خيانة على أيدي عمّيه «الكامل» و «الأشرف». كما أن أئمة «الكامل» أنفسهم جهروا بأنه أساء إلى الإسلام، ولم يقبل المسلمون وأئمتهم مزاعم «الكامل» من أنه احتفظ بالسيطرة العسكرية للمسلمين في الإقليم. أما المسيحيون فأرادوا من «فريدريك» الإستيلاء بالقوة على بيت المقدس وإخراج المسلمين منها. ونظراً لما عهده المسلمون من غدر الصليبيين فقد أخذوا في مغادرة المدينة المقدسة عندما وفد إليها «فريدريك» للحج (في ١٧ آذار – مارس –

(١) ذكر «ابن الأثير» الكامل في التاريخ – أحداث سنة ٦٢٦ هـ – رد فعل المسلمين على هذه المعاهدة بقوله: «وتسلم الفرنج البيت المقدس، واستعظم المسلمون ذلك، وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»، يسر الله فتحه، وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه آمين.

١٢٢٩). وفي الوقت ذاته، نظم المسلمون مقاومات هدفها السطو على الحجاج وسلبهم وقتلهم، كما دبر أئمة المسلمين الزهاد في حبرون ونابلس إغارة على بيت المقدس، فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم إلى برج داود، مما دفع ملك بيت المقدس إلى إرسال قوات للحماية، وبقي الوضع مضطرباً.

والواقع أن السلطان «الكامل» يعتبر إلى حد كبير مسؤولاً عن افتقار المسلمين إلى روح المهاجمة - نظراً لما اشتهر به من أنه رجل سلام وشرف. ولكنه نجح في طموحه لإعادة الوحدة إلى «أسرة الأيوبيين». إذ استطاع أخوه «الأشرف» آخر الأمر في (حزيران -يونيو- ١٢٢٩) أن ينتزع دمشق من «الناصر داوود» -ابن اخيه «المعظم عيسى»-. وحصل «الناصر داوود» مقابل ذلك على مملكة في وادي نهر الأردن وإقليم ما وراء نهر الأردن وعاصمتها -الكرك- على أن يتولاها تحت سيادة «الكامل». واحتفظ «الأشرف» بدمشق، غير أنه اعترف بسيطرة «الكامل» وتنازل له عن بلاد في إقليم الجزيرة وعلى امتداد نهر الفرات. ولما كانت هذه المنطقة من أكثر أقاليم بلاد الأيوبيين تعرضاً لهجوم الخوارزميين - لا سيما بعد أن استولى جلال الدين خوارزم شاه على حصن «خلاط» الضخم في سنة ١٢٣٠م. فقد اتفق «الكامل» مع ملك السلجوقيين في الأناضول - السلطان كيقباذ - على محاربة الخوارزميين ودارت معركة في سنة ١٢٣١م قرب ازنجان انتهت بهزيمة «جلال الدين» الذي لم يلبث أن لقي مصرعه في ١٥ آب -أغسطس- من السنة ذاتها، أثناء فراره من المعركة، على يد فلاح كردي، انتقاماً

لأخيه الذي قتله «جلال الدين» منذ زمن طويل . ولكن ما أن زال خطر الخوارزميين حتى وجد **السلطان السلجوقي «كيقباذ» أنه باستطاعته توسيع حدوده على حساب الايوبيين** ، ودارت معركة بين« كيقباذ » و«الكامل» واستمرت الحرب سجالاً من سنة ١٢٣٣-١٢٣٥م=٦٣١-٦٣٣هـ وانتهى الأمر بانتصار «الكامل» وتوطيد سلطته في الشمال .

توفي الملك «الأشرف» في شهر آب -أغسطس- ١٢٣٧م= ٦٣٥هـ، وتولى أخوه الأصغر-الصالح إسماعيل- حكومة دمشق. ولكن «الكامل» زحف على دمشق في كانون الثاني - ينـاير- ١٢٣٨م وضمها إلى أملاكه ، في حين حاز الصالح «إسماعيل» عوضاً عن دمشق إقطاعاً في بعلبك ، غير أن «الكامل» لم يعش طويلاً بعد انتصاره، إذ مات بعد شهرين في دمشق (يوم ٨ آذار -مارس- ١٢٣٨م = ٦٣٦ هـ) وهو في الستين من عمره . وكان ابنه الأكبر الصالح «أيوب» وقتذاك في الشمال .

٣- «الصالح أيوب» بعد «الكامل» :

ما أن توفي«الكامل» حتى قاد «الصالح أيوب» قواته متوجهاً بها إلى دمشق ومعه بعض قوات المسلمين من الخوارزميين، وهناك وجد أن «الجواد» ابن أخ «الكامل» قد استولى على الحكم في دمشق. فعمل «الصالح أيوب» على طرده منها . وفي تلك الأثناء استقر «العادل الثاني» أخو «الصالح أيوب» ، سلطاناً في مصر. وقرر «الصالح أيوب» الاستيلاء على مصر وانتزاعها من أخيه ،

ولكن انقلاباً وقع في دمشق لمصلحة عمه «الصالح إسماعيل» فتوجه «الصالح أيوب» إلى الجنوب حيث مملكة «الناصر داوود» ملك الكرك الذي دعمه بالقوات لتحقيق هدفه وانتزاع مصر. ولما لم يكن «العادل الثاني» بالكفاءة التي تتطلبها إدارة مصر في تلك الحقبة المضطربة، فقد نجح «الصالح أيوب» في عزله عن العرش (في حزيران - يونيو - ١٢٤٠) وتقررت دعوة «الصالح أيوب» ليتولى حكم مصر. وكافأ «الصالح أيوب» عمه «الناصر داوود» بأن جعله حاكماً عسكرياً على فلسطين. غير أن «الصالح إسماعيل» ما زال حاكماً على دمشق. وكان الصراع الذي استمر خلال السنوات العشرة التالية بين «الصالح أيوب» وعمه «الصالح إسماعيل» كافياً لتمزيق الأسرة الأيوبية. وحاول «توران شاه» ابن «الصالح أيوب» أن يحكم أملاك جده بالجزيرة، غير أن «كيخسرو الثاني» سلطان السلاجقة استطاع انتزاع عدد من المدن وحرمان «توران شاه» منها. ولم يكن باستطاعة «المظفر» الأيوبي - أمير ميافارفين - أو «الناصر يوسف» أمير حلب، أو أميرا حماه وحمص أن يتخذوا أكثر من موقف الدفاع في مواجهة خطر الخوارزمية.

أفاد الفرنج من تمزق الأيوبيين لإعادة تنظيم أمورهم بهدوء، وتوافرت لهم الفرصة لبناء قوتهم والعمل على المساومة بين أفراد الأسرة الأيوبية للحصول على امتيازات كبيرة من كل الأمراء والحكام المتنازعين على السلطة.

استعد الصليبيون للحرب من جديد، وحدث خلاف بين قادتهم في موضوع «هدف الحرب» فبينما أراد بعضهم التوجه لمصر

من أجل الإفادة من الأوضاع المتدهورة فيها و كراهية الناس لحاكمها – الملك «العادل الثاني» – أراد الآخرون التوجه لدمشق إذ اعتبروها العدو الاول لهم، على أن يسبق ذلك تحصين قلاع الجليل ثم ترحف القوات على عاصمة الشام – دمشق – بعد تأمين الجناح الجنوبي.

وفي (٢ تشرين الثاني – نوفمبر – ١٢٣٩م = ٦٣٧ هـ) غادرت قوات تضم سرايا من مختلف الطوائف الدينية، وانطلقت من عكا في طريقها إلى يافا . وهناك توافرت المعلومات عن وجود قافلة تجارية ضخمة للمسلمين تسير مع نهر الأردن في طريقها إلى الشام، فأرسل قائد القوات الصليبية قوة تضم مائتي فارس لنصب كمين للقافلة ، ودارت معركة قصيرة وحاسمة انتصرت فيها قوة الكمين على حرس القافلة ، وقادت قوة الكمين الغنائم إلى يافا . وعلى أثر ذلك ، استنفر ملك الكرك «الناصر داوود» قواته ، كما تقرر إرسال جيش مصر بقيادة الأمير المملوكي « ركن الدين» يضم مائة ألف مقاتل للانتقام من غدر الصليبيين. وتوجه «ركن الدين » إلى غزة . وفي ١٢ تشرين الثاني – نوفمبر – وصل جيش الصليبيين إلى غزة . ونظراً لتوفر الاستطلاع الدقيق عند «ركن الدين » فقد حدد مواقع قوات أعدائه الذين أغفلوا استعداداتهم بعد المسير المضني في الأيام السابقة ولم يشعروا إلا بقوات المسلمين وهي تطوقهم، وحاول الصليبيون مقاومة حلقة الحصار والخروج منها ، فسقط منهم ألف قتيل وستمائة جريح واستطاع الآخرون الفرار. وفي تلك الأثناء كان «الناصر داوود» – أمير الكرك – يقود قواته إلى بيت المقدس حيث عمل على تدمير التحصينات

والاستحكامات التي أقامها الصليبيون، وهاجم قلاعهم في المدينة المقدسة. وقاوم الصليبيون مدة ٢٧ يوماً، اضطروا بعدها إلى الاستسلام في ٧ كانون الأول – ديسمبر – ١٢٣٩م مقابل السماح لهم بالرحيل إلى الساحل.

وحدث بعد ذلك أن اندلعت الحرب لا بين المسلمين والصليبيين وإنما بين المسلمين أنفسهم، إذ قاد «الصالح أيوب» ملك مصر قواته لحرب «الصالح إسماعيل» أمير دمشق. وخاف «الصالح إسماعيل» أن يتعاون ملك مصر مع أمير الكرك «الناصر داوود»، فعقد مع الصليبيين إتفاقاً يقوم بموجبه الصليبيون بالتصدي لجيش مصر مقابل تنازله – أي الصالح إسماعيل – للصليبيين عن «هونين» و «صفد»، ولما رفضت قوات المسلمين في المدينتين الاستسلام للصليبيين، قام «الصالح إسماعيل» بقيادة قواته لإخضاع المدينتين المتمردتين وتسليمها للفرنج. وقام شيوخ المسلمين وقادتهم بالتوجه إلى مصر حتى لا يخضعوا لحكم الأعداء الذين تسلموا «هونين» و «صفد» وما بينهما من مواقع بدون حرب.

وأفاد الصليبيون من الصراع بين أمراء الأيوبيين لينتزعوا منهم اتفاقاً على تسليمهم المعبد في بيت المقدس. (وذلك في نهاية سنة ١٢٤٣م) ولكن «الصالح أيوب» حاكم مصر، استخدم الخوارزميين للعمل ضد الصليبيين، وتوجه ألف فارس من هؤلاء فاقتحموا المدينة المقدسة يوم ١١ تموز – يوليو – ١٢٤٤م. وأمكن لهم القضاء على حاميتها. وغادر ستة آلاف صليبي بيت المقدس

الذي خرج بصورة نهـائية من حكم الإفرنج[1] . وعلى أثر ذلك حشد حكام الإمارات الصليبية وملوكها أضخم جيش توافر لهم منذ معركة حطين بهدف تدمير الجيش المصري الذي كان يقوده **ركن الدين بيبرس البندقداري (المعروف فيما بعد باسم الظاهر بيبرس)** والذي كان يضم خمسة آلاف مقاتل من نخبة الجيش المصري بالإضافة إلى جموع الخوارزمية. وتوجه الجيشان المتصارعان وهما يبحثان عن المعركة إلى أن تم لقاؤهما (يوم ١٧ تشرين الأول - اكتوبر - ١٢٤٤م = ٦٤٢هـ) عند موقع قرب غزة يعرف باسم «الحربية»[2] . وكان جيش الشام وجيش حمص وجيش الكرك يقاتلون إلى جانب الصليبيين وعلى أجنحتهم - الميمنة والميسرة - وكلهم يهدف إلى تدمير الجيش المصري للانتقام من «الصالح أيوب». ولكن الخوارزمية أظهروا عناداً في القتال بقدر ما أظهر «بيبرس» كفاءة في قيادة قواته ، الأمر الذي انتهى بمصرع ٥ آلاف قتيل من جيش الفرنج - والمتحالفين معه - بالإضافة إلى ثمانمائة أسير نقلوا إلى مصر . وأفاد «بيبرس» من انتصاره الحاسم ، فأسرع

---

(١) جاء في تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان - ٣/٣٩٣ ما يلي: « وبذا خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدي الفرنج، ولم يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالي سبعة قرون » إشارة إلى دخول جيش «اللنبي» القدس في سنة ١٩١٧ وبداية الحملة الصليبية الجديدة التي استخدمت الصهيونية لتحقيق أهدافها .

(٢) الحربية، يعرف عند مؤرخي الحروب الصليبية باسم **La - Forbie** وهو يقع في السهل الرملي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة.

بجيشه إلى عسقلان وحاصرها. ولكن «الصالح أيوب» وجه قواته إلى دمشق انتقاماً من ملكها، وحاصرها لمدة ستة أشهر (نيسان – إبريل – سنة ١٢٤٥م حتى أوائل تشرين الأول – اكتوبر – ١٢٤٥م) وانتصر «الصالح أيوب» ودخل دمشق، وظهر بوضوح للفرنج أن هزيمتهم في غزة قد سلبتهم كل ما أحرزوه بجهودهم الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين. **إذ لم يكد «الصالح أيوب» يفرغ من تصفية خصومه في الشام وإعادة توحيدها حتى أخذ في توجيه اهتمامه إلى الفرنج.** فاستولى جيش مصر في ١٧ حزيران – يونيو – ١٢٤٧م على طبرية وقلعتها. ثم مضى إلى عسقلان فحاصرها براً وبحراً، وبعد معارك واشتباكات وأعمال قصف بالمجانيق، اقتحم جيش مصر عسقلان في ١٥ تشرين الأول – اكتوبر – ١٢٤٧م، وانصرف «الصالح أيوب» بعدها إلى دمشق من أجل إعادة تنظيم الأمور في بلاد الشام.

٤ – الجيوش الفرنسية في مصر:

يقال أن ملك فرنسا «لويس» التاسع (١٢١٤ – ١٢٧٠م) والمعروف باسم لويس القديس أصيب بمرض أشرف فيه على الهلاك بالحمى (في تشرين الأول – اكتوبر – ١٢٤٤م)، وهو إذ شعر بدنو أجله نذر على نفسه أن يتوجه إلى فلسطين لقيادة حملة صليبية إن هو نجا من الموت. وعندما غادر مرحلة الخطر، واستعاد عافيته، أخذ في الإعداد لقيادة حملة صليبية جديدة.

مهما كان عليه الموقف، فقد كانت قيادة الحملات الصليبية في

تلك الفترة هي هدف القادة والملوك والمغامرين والطامعين في جميع أنحاء أوروبا. وعلى هذا فقد بدأ «لويس» القديس بالإعداد لحملته التي استمر تنظيمها وتجهيزها فترة ثلاث سنوات. وعندما انتهت الاستعدادات، غادر «لويس» باريس في ١٢ آب – أغسطس – سنة ١٢٤٨م، وأبحر من «إيج مورتز» في ٢٥ آب – أغسطس – يرافقه عدد كبير من أمرائه وقادته، وقوات من كل أنحاء أوروبا. ووصل الأسطول الملكي إلى «ليماسول» في قبرص يوم ١٧ أيلول – سبتمبر – سنة ١٢٤٨م. وهناك توقفت القوات لإعادة التنظيم والاستعداد للحرب ووضع مخططات الهجوم حتى ١٣ أيار – مايو – ١٢٤٩م حيث أمكن حشد أسطول ضخم في «ليماسول» يضم ١٢٠ سفينة ضخمة بالإضافة إلى عدد كبير من السفن الصغرى. وفي ٣٠ أيار – مايو – ١٢٤٩م أبحر الأسطول من قبرص ليصل إلى سواحل مصر في ٤ حزيران – يونيو – ١٢٤٩م = ٦٤٧ هـ.

كان السلطان «الصالح أيوب» قد أمضى الشتاء في الشام، وهو يتابع استعدادات الإفرنج، وينتظر هجومهم الذي كان من المتوقع حدوثه في الشام. وعندما توافرت المعلومات عن توجه الصليبيين إلى مصر، رفع «الصالح أيوب» الحصار عن حمص، التي كان أمير حلب «الناصر يوسف» قد انتزعها من ابن عمه «الأشرف موسى» وأراد «الصالح أيوب» إعادتها لأميرها «الأشرف موسى»، ولكن نزول الفرنج في مصر اضطره إلى رفع الحصار عن حمص، وعجل بالعودة إلى مصر، بعد أن أمر جيوشه بالشام أن تتبعه إليها.

ولما كان السلطان «الصالح أيوب» قد وصل إلى مرحلة متقدمة

من العمر ، وكان مرض (السل) قد أرهقه حتى لم يعد باستطاعته ممارسة القيادة المباشرة ، فقد أمر وزيره المتقدم في العمر « فخر الدين» أن يتولى قيادة الجيش، وعهد إليه بمنع الفرنج من النزول إلى البر ، وأرسل إلى دمياط كميات ضخمة من الذخائر وشحنها برجال قبيلة «كنانة» وهم من البدو المشهورين بالشجاعة ، واتخذ مقره في « أشمون طناح » التي تقع إلى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل .

كانت قوات الصليبيين متفوقة بأعدادها، حيث كانت تضم وفقاً لما تذكره بعض المصادر نحواً من تسعة وخمسين ألف رجل. واعتمد «لويس» على تفوقه ، وأراد استثمار عامل المباغتة، فبدأ إنزال قواته على الفور. وبدأت معركة ضارية تكبد فيها المسلمون خسائر فادحة اضطرتهم في نهاية النهار إلى الإنسحاب، والتوجه إلى دمياط التي هيمن عليها الذعر –بعد تجربة الحملة الصليبية السابقة– ولما لم تتمكن حاميتها من السيطرة على الموقف وإعاقة انسحاب السكان من المدينة، أصدر «فخر الدين» أوامره بالجلاء عن دمياط. وأُحرقت المدينة وما تضمه من مستودعات حتى لا تقع في قبضة الأعداء . وفي صبيحة اليوم التالي (يوم ٦ حزيران –يونيو–)، **علم الصليبيون من المسيحيين الذين لزموا دورهم أن دمياط تجردت من كل أسباب الدفاع فاجتازوا الجسر في موكب الانتصار إلى المدينة.** وتوقفت قوات الصليبيين انتظاراً لانتهاء موسم الفيضان الذي كان قد بدأ – من جهة – وانتظاراً لقدوم الإمدادات من فرنسا بقيادة أخي الملك الفونسو كونت « بواتو» ، وتم توزيع

أحياء المدينة على القوى المختلفة المشتركة في الحملة .

أصيب العالم الإسلامي بالذعر نتيجة ضياع دمياط وسقوطها في قبضة الصليبيين . وأسرع السلطان المريض إلى تقديم العرض الذي قدمه أبوه «الكامل» قبل ثلاثين سنة وهو التنازل عن بيت المقدس مقابل الانسحاب من دمياط. ولكن هذا العرض لم يلق من الملك «لويس» إلا الرفض . وفي تلك الأثناء كان السلطان «أيوب» قد أنزل العقاب بالقادة المسؤولين عن ضياع المدينة (دمياط) فأمر بإعدام أمراء بني كنانة ، وبعزل «فخر الدين» وكبار قادة المماليك. وأراد المماليك أن يقوموا بثورة داخل القصر، غير أن «فخر الدين» أعاقهم عن تحقيق هدفهم، وكان ذلك سبباً في استعادة مكانته لدى «السلطان أيوب» .

وأخذت القوات في التدفق إلى المنصورة، والتي كان السلطان «الكامل» قد شيدها في الموضع الذي أحرز فيه انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة . وأمر السلطان «أيوب» بحمله في محفته إلى المنصورة حتى يشرف بنفسه على تنظيم الجيش، وتحصين الدفاع. وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف ، وظلوا يزحفون حتى بلغوا أسوار دمياط ، يقتلون كل فرنجي يلتقون به خارج أسوار المدينة. وتحتم على الملك «لويس» أن يقيم الحواجز، وأن يحفر الخنادق لحماية معسكره .

وصلت قوات الدعم الفرنسية بقيادة الفونسو كونت «بواتو» (في ٢٤ تشرين الأول –أكتوبر– ١٢٤٩م) وفي الوقت ذاته كانت

مياه النيل قد هبطت وأصبح بالإمكان استئناف التقدم في اتجاه القاهرة . وفي ٢٠ تشرين الثاني – نوفمبر– ١٢٤٩م خرج الجيش الصليبي من دمياط، وسلك الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة. وبقيت بدمياط حامية قوية فضلاً عن الملك وبطريرك بيت المقدس. ولم تمض ثلاثة أيام على بداية الهجوم حتى توفي الملك السلطان «الصالح أيوب» في المنصورة (يوم ٢٣ تشرين الثاني – نوفمبر– ١٢٤٩م– ٦٤٧هـ) . وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة. إذ أن ابنه الوحيد «توران شاه» كان يقيم بعيداً في إقليم الجزيرة حيث ينوب عن أبيه في الحكم . ولم ينقذ مصر إلا السلطانة «**شجرة الدر**» التي منحت ثقتها إلى «جمال الدين محسن» الذي خضع البلاط لسلطانه، بقدر ما منحت ثقتها أيضاً إلى «فخر الدين». **وأخفت خبر وفاة زوجها وزورت وثيقة تحمل توقيعه، وتقضي بتعيين «توران شاه» ولياً للعهد، وتعيين «فخر الدين» قائداً عاماً للجيش ونائباً للسلطان أثناء مرضه .**

عمل «فخر الدين» على الاحتفاظ بالقسم الأكبر من قواته خلف البحر الصغير الذي يتفرع عن المجرى الرئيسي لنهر النيل جنوبي المنصورة ويسير مجتازاً «أشمون طناح» إلى بحيرة «المنزلة»، فيعزل بذلك ما يعرَف بجزيرة دمياط . وفي الوقت ذاته وجه «فخر الدين» مفارز من قواته للدفاع عن القنوات الكثيرة المتفرعة عن النيل، وقد نجح هؤلاء الفرسان في إيقاع الاضطراب بقوات الإفرنج عند اجتيازها لكل قناة من القنوات . وهكذا تقدم الملك «لويس» ببطء وحذر حتى اقترب من «فارسكور» حيث

دارت معركة حاسمة في ٧ كانون الأول – ديسمبر – ١٢٤٩م ، انتصر فيها الفرنج ، ثم بلغ الملك في ١٤ كانون الأول –ديسمبر– إلى «البرمون». وفي ٢١ كانون الأول عسكر الصليبيون على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة. وظل الجيشان ستة أسابيع يواجه أحدهما الآخر. وحدثت خلال هذه الفترة مجموعة من الاشتباكات الثانوية ، كما حاول فرسان المسلمين توجيه ضربات إلى مؤخرة قوات الصليبيين الذين أحبطوا هذه الضربات .

وفي تلك الأثناء أمر الملك «لويس» بإقامة جسر على البحر الصغير ، غير أنه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع ، فإن ما لجأ إليه المصريون من إلقاء القذائف –من الشاطىء المقابل– ولا سيما النيران الإغريقية ، بلغ من الشدة والعنف ما دعا الفرنج إلى التخلي عن العمل. وتوقف الصليبيون حتى ٨ شباط –فبراير– ١٢٥٠م حيث استخدموا الجواسيس لعبور البحر الصغير . وعلى الرغم من الأوامر الصارمة التي أصدرها الملك إلى أخيه الكونت «روبرت» الذي كان يقود المقدمة بعدم التوغل بعد العبور ، إلا أن الكونت «روبرت» خالف الأوامر واندفع بفرسانه إلى قلب معسكر المسلمين الذين أخذتهم المباغتة فلم يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم. ولقي كثير من قوات المسلمين مصرعهم وعلى رأسهم القائد «فخر الدين» ذاته ، فتولى «ركن الدين بيبرس البندقداري» القيادة ، وأعاد تنظيم القوات بسرعة ، ووضع الكمائن عند تقاطع الشوارع ، ثم أمر بفتح أبواب المدينة . واندفع الصليبيون حتى إذا بلغوا أسوار القلعة انقض عليهم المماليك من الشوارع الجانبية .

ولما لم تتمكن خيول الفرنج من الاستدارة في الشوارع الضيقة ، فقد وقعت على الفور في فوضى واضطراب . فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان بلغوا ضفاف النيل راجلين ولم يلبثوا أن غرقوا في مياهه . واعتصم قائد المقدمة « روبرت » وحرسه في أحد البيوت ، لكن الجند المصريين اقتحموا عليه مخبأه وقتلوه مع حراسه . واستطاع بعضهم الفرار والوصول إلى الملك الذي كان قد أكمل عملية العبور ليخبروه بما حدث في مدينة المنصورة . فأسرع الملك لتنظيم الدفاع، ومجابهة قوات المماليك التي انطلقت من المنصورة بعد القضاء على قوات الإفرنج فيها. واستمر الاشتباك على شاطيء النهر حتى المساء دون أي نتيجة، وبذلك تكون قوات الصليبيين قد نجحت في عملية العبور ، ولكنهم لم يتمكنوا من مغادرته. وقام المسلمون بهجوم جديد في يوم ١١ شباط –فبراير– ولكن الصليبيين نجحوا في إحباطه بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة . وكان الملك « لويس » يتوقع قيام المصريين بثورة على قيادتهم ، إلا أن ذلك لم يحدث ، بل إن ما حدث قد جاء ليزيد من قدرتهم. فقد وصل «توران شاه» إلى مصر بعد أن بايعه أهل دمشق على خلافتهم .

وفي ٢٨ شباط –فبراير– ١٢٥٠م وبعد أن تولى «توران شاه» إدارة السلطة ، أمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة ، ثم نقلها على ظهور الإبل إلى فروع النيل السفلى بمهمة اعتراض السفن الصليبية. واستولى المصريون على ثمانين سفينة للفرنج الواحدة بعد الأخرى . وحدث في ١٦ آذار – مارس – أن فقد الصليبيون

قافلة مؤلفة من اثنين وثلاثين سفينة بعد أن تعرضت لهجوم واحد من قبل الأسطول المصري . ولم يلبث أن تعرض الفرنج لخطر المجاعة ، وأعقب المجاعة اندلاع المرض بين الصليبيين .

أدرك الملك «لويس التاسع» في بداية شهر نيسان – إبريل – سنة ١٢٥٠م = ٦٤٨هـ أنه لا بد أن يبذل كل ما في وسعه لكي يخلص الجيش من المأزق الذي يجابهه وأن يتقهقر إلى دمياط . وأعد نفسه آخر الأمر لأن يدخل في مفاوضات مع المسلمين ، فأرسل إلى « توران شاه» يعرض عليه أن يستبدل بدمياط بيت المقدس . غير أن الوقت قد فات، إذ علم المصريون كيف أضحى مركز « لويس » بالغ الحرج ، فلما لم يلق عرض « لويس» سوى الرفض، دعا قادته للاجتماع به لمناقشة أمر التراجع حتى دمياط. ونظمت خطة الإنسحاب فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل ، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدومهم .

وفي صبيحة يوم ٥ نيسان – إبريل – سنة ١٢٥٠م. بدأت الرحلة الشاقة، فاتخذ الملك «لويس» مكانه في المؤخرة حتى يشجع الجنود الذين شردوا عن الطريق . وإذ شهد المماليك بالمنصورة تحرك الفرنج ، نهضوا لمطاردتهم ، فاكتشفوا أن الفرنج جميعاً قد اجتازوا البحر الصغير ، غير أن المهندسين أهملوا تدمير الجسر، فهرعوا إلى اجتياز البحر الصغير على هذا الجسر . ولم يلبثوا أن أحاطوا بالفرنج من كل جانب. ومضى اليوم الأول من المطاردة وإحكام الطوق على الفرنج ، وفي اليوم الثاني سقط الملك مريضاً

بحيث لم يتمكن من ركوب حصانه ، فتم نقله إلى كوخ صغير بقرية «ميت الخولي عبد الله» الواقعة إلى الشمال من «شرمساح».

وحاول قادة الصليبيين الاتصال بالسلطان « توران شاه » ، وبينما كانت المفاوضات مستمرة للجلاء عن دمياط دون قيد أو شرط ارتفع صوت في المعسكر الصليبي يعلن قبول الملك بالاستسلام دون قيد أو شرط. - بدون علم الملك ومن قبل أحد جواسيس المسلمين على ما تزعمه المصادر الغربية - فتم تطويق الجيش بأسره مع قيادته، وفي الوقت ذاته تم تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل المرضى إلى دمياط . ونقل الملك إلى منزل بالمنصورة ، كما ألقي بكبار القادة والبارونات في السجون . وفرضت على الملك غرامة قدرها خمسمائة ألف ليرة تورناويه - أي ما يقابل مليون بيزنته - مقابل إطلاق سراحه . كما فرضت على كل أمير فدية بحسب قدره ومكانته. وقضى الاتفاق بأن يتم تسليم دمياط للمسلمين بعد يومين (أي في ٣٠ نيسان - إبريل - سنة ١٢٥٠م) وبقي الأسرى مع «توران شاه» في «فارسكور» حتى يوم ٢ أيار - مايو - سنة ١٢٥٠م .

كانت الملكة « مرغريت » في دمياط تضع مولودها عندما بلغها نبأ تسلم جيش الفرنج واستسلامه ، فأطلقت على ابنها اسم «الحزين» [١] . وبلغها بعد ذلك نبأ استعداد الجنويين والبيازنة للجلاء عن دمياط ، فأرسلت إلى قادتهم، واستدعتهم إلى غرفتها

---

(١) Tristan .

حتى ترجوهم البقاء من أجل الاحتفاظ بورقة للمساومة من أجل إطلاق سراح الملك، وبذلت مبلغ ثلثمائة وستين ألف ليرة لشراء الأغذية والمواد التموينية من أجل بقاء الجيش، فوافق الجنويون والبيازنة على البقاء. وعندما أصبح باستطاعتها السفر نصحها رجالها بالتوجه إلى عكا - عبر البحر - فغادرت دمياط يرافقها بطريرك بيت المقدس.

شعر « توران شاه » بشدة وطأة المماليك وسيطرة زوج أبيه « شجرة الدر » فأراد تعيين قادته وأنصاره في السلطة بعد أن عرف زوال الخطر الصليبي. وأدركت «شجرة الدر» ما سينتهي إليه وضعها عندما يسيطر « توران شاه » على السلطة ، كما أدرك قادة المماليك ذلك، وعلى هذا أرسلت «شجرةالدر» إلى أنصارها تستنفرهم. وبينما كان « توران شاه » ينهض من طعام الغذاء، انقض عليه قادة المماليك بقيادة «بيبرس البندقداري»، واستطاع « توران شاه » الهرب بعد أن أصابته بعض الجراح ، وطارده « بيبرس » حتى النهر، وهناك أجهز عليه.

ونصب المماليك «عزالدين ايبك» قائداً عاماً (أتابك) للعساكر ووصياً على العرش ، فتزوج من السلطانة الأرملة «شجرة الدر» التي تمثل الصفة الشرعية في الحكم.

تسلم قادة المسلمين حصون دمياط يوم الجمعة ٦ أيار-مايو- ١٢٥٠م، ودفع الملك نصف الفدية فتم إطلاق سراحه مع عدد من باروناته فأقلع إلى عكا حيث حملته سفينة صغيرة. وبقي ألف وأربعمائة مقاتل في قبضة المسلمين كرهائن إلى أن يتم

دفع النصف الثاني من الفدية .

غضبت بلاد الشام لمصرع «توران شاه» في يوم ٢ أيار – مايو – ونهض « الناصر يوسف » فقاد جيش حلب ، بعد أن أخذ البيعة لنفسه ، وبايعه أهل حمص ، واستقبلته دمشق وبايعته يوم ٩ تموز – يوليو – باعتباره حفيد «صلاح الدين». وتجدد الصراع بين دمشق والقاهرة . فسار جيش الشام إلى مصر ، والتقى بجيش مصر الذي كان يقوده « ايبك » ، وحدثت معركة حاسمة يوم ٢ شباط – فبراير – ١٢٥١م عند « العباسية » الواقعة على مسافة اثني عشر ميلاً إلى الشرق من مدينة « الزقازيق » الحالية . وانتصر جيش الشام في المرحلة الأولى من المعركة ولكن جيش مصر انتصر في النهاية . وتوقف القتال ، إلا أن المهم في الأمر هو أن الصليبيين قد أفادوا من هذا الصراع للمساومة على إطلاق سراح أسراهم – القدامى منهم والمحدثون – ممن وقعوا في الأسر في معركة غزة وحملة دمياط .

وفي تلك الفترة كان الخليفة « المعتصم » يتابع الصراع ، وأفزعه ما حدث من انشقاق في الجبهة الإسلامية خلال تلك الفترة التي كان فيها المغول – التتار – يهددون العالم الإسلامي بجموعه ، وأمكن إبرام الصلح في (نيسان – إبريل – سنة ١٢٥٣م = ٦٤١ هـ) على أساس الاعتراف بـ «ايبك» سلطاناً على مصر ، وله أن يضيف إلى سلطته ما يقع من فلسطين حتى الجليل شمالاً وحتى نهر الأردن من جهة الشرق . وعاد الهدوء ليسيطر على

جبهـــات الصراع بين المسلمين والصليبيين – باستثناء بعض الاشتباكات الثانوية .

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى أظهر الملك «لويس» رغبته في العودة إلى بلاده – فرنسا – ولكنه عمل قبل رحيله على عقد معاهدة مع « الناصر يوسف » سلطان دمشق **لمـدة سنتين وستة شهور وأربعين يوماً، تبدأ من ٢١ شباط – فبراير – سنة ١٢٥٤م**، ورحب الملك «الناصر يوسف» بهذه المعاهدة التي ضمنت له تجنب خوض حرب كبيرة مع الفرنج في الوقت الذي أصبح فيه الخطر المغولي جاثماً على حدود بلاد المسلمين .

ب – الموقف على جبهة الصليبيين :

ما إن انتهت معركة حطين واستولى «صلاح الدين الأيوبي» على بيت المقدس، حتى ترددت أصداء هذا الحدث بأضعاف قوته في أوروبا . فقد انهار كل البناء الذي أقامه الغرب فوق أرض فلسطين بضربة واحدة . وانطلقت الوفود من مدينة صور التي أخذت على عاتقها جمع شمل الصليبيين لتنذر ملوك الغرب بصورة شخصية بما انتهى إليه وضع الفرنج . وكان ملك صقليا أول مَن استجاب للدعوة « فلبث حزينـاً وارتدى الملابس الخشنة من الخيش والتمس مكاناً اعتزل فيه لمدة أربعة أيام . ثم كتب إلى رفـاقه الملوك يحثهم على الاشتراك في حرب صليبية بينما تجهز لتوجيه حملة إلى الشرق في أسرع ما يتهيأ له من الوقت » وعقد صلحاً مع الإمبراطور البيزنطي لإزالة الخلاف فيما بينهما وتوحيد

جهودهما ضد المسلمين، كما استدعى أمير البحر الصقلي وطلب إليه العودة إلى البلاد استعداداً للحملة التالية .

أما في روما ، فقد مات البابا الهرم « ايربان الثالث » كمداً (في ٢٠ تشرين الأول –اكتوبر– ١١٨٧م) وخلفه «جريغوري» الثامن الذي بادر على الفور إلى إرسال كتاب دوري إلى جميع المؤمنين بالغرب « حتى يكفّر كل إنسان عن خطاياه... ووعد **جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب**، فينبغي أن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء بينما تصير سلعتهم في الدنيا في حماية المقر المقدس » واختتم كتابه بالدعوة إلى الصيام كل يوم جمعة لمدة خمس سنوات، والامتناع عن تناول اللحم يومي الأربعاء والسبت، وأعلن البابا أنه سوف يصوم أيضاً يوم الإثنين أهل بيته وأسر الكرادلة. **وتقرر أيضاً أن يتوجه من روما مبعوثون آخرون ليفرضوا على جميع أمراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات.**

ولم يعش البابا «جريغوري» الثامن ليشهد نتيجة جهوده، إذ مات في « بيزا » يوم ١٧ كانون الأول – ديسمبر– ١١٨٧م ولم يمض على بابويته سوى شهرين فتم انتخاب أسقف «براينيست» بعد يومين باسم **«كليمنت الثالث»** .

ونجحت وساطة روما في عقد صلح بين ملكي إنكلترا وفرنسا «هنري الثاني» و «فيليب أغسطس» وذلك في كانون الثاني –يناير–١١٨٨م، وتوقفت الحرب المستمرة بين البلدين من أجل توجيه الجهد لحرب المسلمين . وأقسم عدد كبير من كبار النبلاء

بالمملكتين – فرنسا وإنكلترا – على أن يصحبوا الملكين. وتقرر أن يسير الجيشان معاً. فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الأحمر على أرديتهم، بينما اتخذ العساكر الإنكليز الصليب الأبيض واختار الفلمنكيون الصليب الأخضر. وللإنفاق على الحملة فرض الملكان ضرائب خاصة، إذ اجتمع في نهاية شهر كانون الثاني–يناير– سنة ١١٨٨م مجلس الملك «هنري» في «لي مانز» وقرر أن تؤدى الضريبة المعروفة باسم «عُشر صلاح الدين» والتي تقدّر بعشرة في المائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة. ويقتضي جبايتها من الرعايا للملك «هنري» في كل من إنكلترا وفرنسا.

إلا أن الحرب عادت فاندلعت بين إنكلترا وفرنسا في حزيران – يونيو– ١١٨٨م وفي كانون الثاني – يناير– ١١٨٩م، واستمرت الحرب قائمة رغم كل جهود الكنيسة والنبلاء حتى وفاة ملك إنكلترا «هنري» الثاني في ٦ تموز – يوليو – ١١٨٩م، إذ عمل الملك «ريتشارد» على عقد صلح مع «فيليب أغسطس» وعاد إلى إنكلترا حيث تم تتويجه في ٣ أيلول –سبتمبر– ١١٨٩م ومضى في الاستعداد للحملة الصليبية، وإعادة تنظيم المملكة. **ولكن الإنكليز لم ينتظروا انتهاء هذه الاستعدادات، إذ انطلق أسطول إنكليزي صغير يسيره بحارة من لندن**، فغادر نهر التيمس في شهر آب – أغسطس– سنة ١١٨٩م وبلغ البرتغال في الشهر التالي. وفي البرتغال وافقوا مثلما وافق مواطنوهم قبل أربعين سنة على أن يدخلوا موقتاً في خدمة ملك البرتغال. وبفضل مساعدتهم استطاع «سانكو» – أو «سانتو» – ملك البرتغال أن

ينتزع من المسلمين حصن «شلب» الواقـع إلى الشرق من رأس القديس «فنسان» . وفي ٢٩ أيلول ــ سبتمبر ــ اجتاز البحارة الإنكليز مضيق جبل طارق ووصلوا إلى فلسطين مع سفن دانمركية وفلمنكية ، يبلغ عددها نحو خمسمائة سفينة

مضت ثلاثة أعوام على معركة حطين قبل أن تنتهي الاستعدادات للحملة الصليبية الثالثة، والتي أصبح من المقرر أن تضم في قيادتها بالإضافة إلى ملكي إنكلترا وفرنسا ــ امبراطور ألمانيا «فريدريك بربروسة» وملك صقليا . وقـاد «فريدريك بربروسة» القوات الألمانية ــ وتوجه بها براً من (راتيزبون) في ألمانيا (في أوائل أيار ــ مايو ــ ١١٨٩م) وعبر نهر الدانوب عند بلغراد في ٢٣ حزيران ــ يونيو ــ ثم اجتاز البلقان في بطء شديد حتى وصلت «غاليبولي» على الدردنيل في آذار ــ مارس ــ سنة ١١٩٠م ، وعندما هبط الجيش الألماني الضخم سهل سلوقية في ١٠ حزيران ــ يونيو ــ سنة ١١٩٠م ، وأخذ في عبور نهر «كاليكادنوس» سقط الامبراطور في النهر ومات قبل أن ينقذه حرسه . وكان ذلك سبباً في تمزق الجيش الألماني . أما بالنسبة لملك صقليا «وليم الثاني» فقد مات في ١٨ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١١٨٩م وحرم من مرافقة الحملة ، وجاء بعده «تانكرد» ليتولى قيادة قوات صقليا وليشترك في الحملة إلى جانب القوات الأوروبية المشتركة .

أخذت الإمدادات تصل من الغرب في بدايـة شهر أيلول ــ سبتمبر ــ سنة ١١٨٩م ، فكان أول ما قدم منها أسطول ضخم

للدانيين والفريزيان ، ونظراً لما اشتهر به بحارة هذا الأسطول من المهارة فقد كان لا بد من استخدامهم لإكمال حلقة الحصار على المدينة من جهة البحر (وكانت عكا ـ هذه المدينة ـ تخضع للحصار منذ أن استولى عليها «صلاح الدين» في العـام ١١٨٧م) وبعد بضعة أيام ، قدمت سفن من إيطاليا تقل وحدة من العساكر الفلمنكية والفرنسية. وعمل «صلاح الدين الأيوبي» على حشد قواته لمجابهة الموجة الجديدة ، ودعم حامية عكا . وقـد أمكن في ظروف مختلفة دعم هذه الحامية عن طريق البحر. كما أمكن ترميم الثغرات وإصلاح الأسوار التي دمرت في الهجوم السابق. واستمر الصراع المرير حول عكا ـ رغم ما كان يتخلله من مظاهر الفروسية كتبادل التحية بين القادة، قبل كل معركة ، وتبادل الهدايا في المناسبات والأعياد. وهكذا مضت سنة ١١٩٠م في شبه هدنة مع استمرار القتال بدون الوصول إلى الحسم .

وفي النهاية هبط ملك فرنسا «فيليب أغسطس» إلى المعسكر المسيحي أمام عكا في ٢٠ نيسان ـ إبريل ـ سنة ١١٩١م بينما قدم الملك «ريتشارد» ملك إنكلترا بعد سبعة أسابيع ونزل قرب صور مساء يوم ٦ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١١٩١م وبدأت على الفور الأعمال القتالية للحملة الصليبية الثالثة .

١ ـ الحملة الصليبية الثالثة :

استطاع الصليبيون تشديد قبضتهم على عكا ، وبالرغم من كل الجهود التي بذلها «صلاح الدين» لإنقـــاذ المدينة الصامدة ، فقد

استطاعت القوات الصليبية اقتحام المدينة يوم ١٢ تموز -يوليو- ١١٩١م بعد حصار استمر أكثر من ثلاثة أعوام . وبدأت بعد ذلك المفاوضات لتسليم الأسرى . وعند هذه المرحلة أعلن ملك فرنسا «فيليب أغسطس» عن رغبته بالعودة إلى بلاده بعد أن أدى واجبه في الاستيلاء على عكا، وتعهد بترك قواته في فلسطين. وتولى «ريتشارد» المفاوضات ، وهو إذ عمد إلى المماطلة وأفاد من تأخر رد «صلاح الدين» على شروطه ، قرر إجراء مذبحة في المسلمين وأمر يوم ٢٠ آب -أغسطس- بذبح سبعمائة وألفي أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا . « فاشتدت حماسة عساكره للقيام بهذه المجزرة ، وقد حمدوا الله لما هيأ لهم من فرصة ...

ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم الى جوارهم .

ولم يبقوا على حياة أحد ، سوى بعض الأعيان وبعض الرجال الأقوياء للإفادة منهم في أعمال السخرة. وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث ، فاندفعوا لإنقاذ ذويهم ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام ، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إليهم . ولما انتهت المذبحة غادر الإنكليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة ، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على شهدائهم »[1] .

ومضى «ريتشارد» بعد ذلك يقود قوات الصليبيين في محاولة لاستعادة بيت المقدس ، فغادر عكا يوم الخميس ٢٢ آب -أغسطس-

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية « رنسيمان » ٣/١٠٦-١٠٧ .

١١٩١م=٥٨٧ هـ. في حين كان «صلاح الدين» يعسكر في «شفرعم» التي تتحكم في الطريقين الرئيسيين الممتدين من الساحل، فيتجه أحدهما إلى طبرية ودمشق بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة إلى بيت المقدس. غير أن «ريتشارد» سار إلى الجنوب والتزم الطريق الممتد على الساحل حيث يلقى جناحه الحماية من قبل البحر والأسطول. وسار «صلاح الدين» في خط مواز لتحرك الصليبيين، وحاول اختيار موقع المعركة المقبلة، فوقع اختياره على سهل «أرسوف»، وهناك دارت المعركة يوم ٧ أيلول ـ سبتمبر ـ ١١٩١م، إلا أن قوات «صلاح الدين» لم تحرز النصر، وكانت هذه النتيجة انتصاراً للملك «ريتشارد» والصليبيين الذين لم يتكبدوا فيها خسائر فادحة.

استمرت العلاقات بعد ذلك بين المسلمين والصليبيين في تناوب بين الهدنة والحرب، وفي بذل الجهود لتسويات سلمية طوال سنوات ١١٩١ و١١٩٢م، إلى أن تم التوقيع على معاهدة بين «صلاح الدين» و «ريتشارد» في ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١١٩٢م لتضع الحد للحملة الصليبية الثالثة. وغادر «ريتشارد» فلسطين وتوفي بعد ذلك «صلاح الدين». **وعاد التمزق بين الصليبيين للسيطرة على الممالك التي تمت إقامتها في العالم الإسلامي.**

كان من أبرز الأعمال بعد ذلك حملة الصليبيين في سنة ١١٩٧م=٥٩٤هـ والتي عرفت باسم «الحملة الصليبية الألمانية» **والتي استطاعت فرض سيطرتها على بيروت**، ثم حاولت الوصول إلى بيت المقدس وبدأت عملياتها بإلقاء الحصار على تبنين (في شهر تشرين الثاني

ـ نوفمبر ـ ١١٩٧م) في الجليل ، ولكن الحامية الإسلامية صمدت للحصار. وانتهت هذه العملية بالفشل، فانسحب الألمان، وتركوا في بيروت تنظيماً قتالياً جديداً عرف باسم **«الفرسان التيوتون»** ـ على غرار فرسان الاستبارية والداوية ـ وفي سنة ١١٩٨م تلقت هذه القوة من ملك ألمانيا ومن البابا الاعتراف بها على أنها طائفة عسكرية .

٢ ـ الحملة الصليبية الرابعة (تدمير الإمبراطورية البيزنطية):

توفي البابا «غريغوري» الثامن في سنة ١١٩٨م وخلفه في كرسي البابوية البابا «أنوسنت» الثالث الذي استهل حياته بالكتابة إلى بطريرك بيت المقدس يطلب إليه موافاته بتقرير مسهب عن مملكة الفرنج في فلسطين . كما بدأ جهوده لتوجيه المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي «الكسيوس» الثالث في محاولة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية . ووجه البابا «أنوسنت» الثالث أفضل دعاته إلى دول أوروبا وإماراتها من أجل الدعوة لحملة صليبية جديدة . واختار لهذه المهمة «فولك نيللي» الرحالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية ، وكان أكبر مبشر للبابا في فرنسا . واشتهر «فولك» بأنه لا يخشى الأمراء ، ومن الدليل على ذلك أنه طلب إلى الملك «ريتشارد» أن ينبذ كبرياءه ونهمه وشهوته .

وبناء على طلب البابا طاف «فولك» بالبلاد يحث أهل الريف على أن يتبعوا سادتهم إلى الحرب المقدسة. وفي الوقت ذاته كان «مارتن» رئيس دير «بايريس» يثير الحماسة في ألمانيا بمواعظه .

ولكن بالرغم عن ذلك لم يثر «فولك» و «مارتن» من الحماسة الدينية ما أثاره دعاة الحملة الصليبية الأولى. على أن التجنيد فاق في النظام ما حدث في الحملة الصليبية الأولى ، فأضحى قاصراً على اتباع البارونات الذين وعدوا بالاشتراك في الحروب الصليبية. ولكن عدداً كبيراً من البارونات لم تحركهم التقوى مثلما أثارتهم الرغبة في حيازة أراضي جديدة.

وكانت مشكلة قيادة هذه الحملة من المشاكل الصعبة ، وتقرر في النهاية انتخاب «بونيفاس مونتفيرات» لقيادة الصليبيين.

وقدم «بونيفاس» إلى فرنسا في شهر آب ـ أغسطس ـ سنة ١٢٠١م والتقى في «سواسون» بكبار زملائه الذين أقروا تعيينه قائداً للحملة (نظراً لما له من صلات معروفة بالشرق ـ إذ أن «وليم» والد «بونيفاس» مات بالشرق) ومن فرنسا توجه إلى ألمانيا ليقضي شهور الشتاء مع صديقه القديم «فيليب دوق سوابيا» الذي أظهر اهتمامه بمشاريع صديقه ، على أن أكثر ما اهتم به أمور بيزنطة لا الشام. ذلك أن التمزق كان يسيطر على الأسرة الحاكمة البيزنطية ، مما ساعد «الكسيوس» على تنظيم مؤامرة في البلاط البيزنطي خلع بواسطتها أخاه «إسحاق» وابنه «الكسيوس» الصغير وألقى بهما في السجن ، وأعلن نفسه امبراطوراً باسم «الكسيوس الثالث» ولكن «الكسيوس» الصغير استطاع الفرار من سجنه في نهاية سنة ١٢٠٢م وغادر القسطنطينية ، واتخذ طريقه إلى بلاط أخته في المانيا زوجة «فيليب» ـ دوق سوابيا ـ. فأحسن «فيليب» استقباله ، ثم قدمه إلى «بونيفاس مونتفيرات».

فتشاور الرجال الثلاثة معاً، وأعرب «الكسيوس» عن رغبته في أن يظفر بعرش والده . وأبدى «فيليب» استعداده لمساعدته حتى تصير الامبراطورية الشرقية تابعة للإمبراطورية الغربية ، وإذ صار تحت تصرف «يونيفاس» جيش صليبي ضخم ، فقد وجد أن من مصلحته التوقف في القسطنطينية لتتويج «الكسيوس» الصغير إمبراطوراً لبيزنطة .

وابتدأت المفاوضات بعد ذلك بين الصليبيين والبندقية من أجل عقد معاهدة يتم بموجبها قيام البندقية بإمداد الحملة الصليبية بالإمداد والمؤن ما يكفي منها لمدة سنة ـ ولقوة ٤٥٠٠ فارس مع خيولهم بالإضافة إلى ٩٠٠٠ من أتباع الفرسان و ٢٠ ألف راجل ـ وتبذل جمهورية البندقية أيضاً خمسين سفينة لمرافقة الحملة ، ومقابل ذلك تحصل البندقية على خمس وثمانين ألف قطعة فضية كلونية ، وأن تحصل البندقية أيضاً على نصف ما تفتحه الحملة من البلاد (ووافقت البندقية على هذه المعاهدة في ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٢٠٢م=٥٩٩ هـ) وفي هذا الوقت كان الصليبيون قد حشدوا قواتهم في جزيرة صغيرة اسمها «نيقولو دي ليدو» ، غير أن جمهورية البندقية لن تقدم السفن ما لم يتم الدفع على الفور . وأخذ التجار البنادقة في الإلحاح على قادة الحملة الصليبية بدفع ما يترتب عليهم من أموال ، ويهددونهم بقطع المؤن عنهم ، ولم يبق أمام قادة الحملة إلا الاذعان لما يطلبه حاكم البندقية الدوق «انريكو د اندولو» .

ومن المعروف أن الحرب ظلت سجالاً بين جمهورية البندقية وملك المجر على امتـداد عشرات السنين من أجل السيطرة على «دالماسيا»، وقد انتقلت منذ زمن قصير مدينتها الرئيسية «زارا» إلى حوزة المجريين، فجرى إخطار الصليبيين بأنهم إذا اشتركوا في حملة تمهيدية لاستعادة «زارا» فسوف تستأنف الحملة سيرها، وتؤجل تسوية الديون . ووافق قادة الحملة على هـذا العرض . وأقلع الأسطول من البندقية في ٨ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ سنة ١٢٠٢م، فبلغ «زارا» بعد يومين . ولم تلبث المدينة بعد أن تعرضت لهجوم عنيف أن استسلمت في ١٥ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ فاستباحها العساكر . ثم نشب القتال بعد ثلاثة أيام بين البنادقة والصليبيين أثناء اقتسام الغنيمة. غير أن السلام لم يلبث أن التأم، واستقرت الحملة في «زارا» لقضاء فصل الشتاء .

واكتفى البابا «أنوسنت الثالث» بإصدار أمر ينص على «أنه ينبغي ألا يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين إلا إذا كانوا فعلاً يعوقون الحرب المقدسة » ولما كان اليونانيون يرتابون دائماً في نوايا البابا ويجهلون تعقيدات السياسات الغربية فإنه تراءى لهم أن ما أصدره البابا من قرار هزيل يعتبر دليلاً على أنه كان وراء كل المؤامرة .

مهما كان عليه الموقف، فقـد توجهت الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، ووصلتها في ٢٤ حزيران ــ يونيو ــ ١٢٠٣م = ٦٠٠ هـ . وأمكن تنصيب الامبراطور « الكسيوس » الصغير،

ولكن هذا لم يكن قادراً على الوفاء بالالتزامات التي تعهد بتقديمها، وبدأت الأمور في الاضطراب إلى أن قامت **ثورة قادها جند البندقية. وتعرضت القسطنطينية لنهب لا مثيل له في التاريخ.** إذ ظلت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للعالم المسيحي. فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية، وحفلت بما أجراه صناعها المهرة من الروائع. **وعرف جند البندقية قيمة هذه الأشياء، فاستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم** من الكنوز ونقلوها إلى مدينتهم فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور. أما الفرنسيون والفلمنكيون فتسلطت عليهم الشهوة للتدمير، فاندفعوا كالرعاع المسعورة، يجوبون الشوارع ويغشون الدور، ينتزعون كل ما يتلألأ ويلمع، ويدمرون كل ما لم يستطيعوا حمله. ولم يتريثوا إلا لكي يقتلوا أو ينهبوا أو يقتحموا مستودعات النبيذ لينتشوا منها. ولم يفلت من التخريب الأديرة والكنائس والمكتبات[1]

(١) وصف مؤرخ لاتيني : Nicetas Choniates - p.p. 757-763 ما تعرضت له القسطنطينية فذكر ما يلي: «حدث في كنيسة القديسة «صوفية» ذاتها أن جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة، ويدوسون بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات. وبينما كانوا يتناولون الشراب في أواني المذبح مبتهجين تربعت عاهرة على كرسي البطريرك وأخذت تردد أغنية فرنسية بذيئة. وتعرضت الراهبات للاغتصاب في أديرتهن. ولم تجر التفرقة بين القصور والأكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلفظون أنفاسهم في الشوارع. وظلت مناظر النهب وسفك الدماء المريعة مستمرة ثلاثة أيام، حتى أضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم. إن المسلمين لأكثر منهم رحمة».

(تاريخ الحروب الصليبية ٣/٢٢٣)

وتقرر تقسيم المدينة على الطوائف المشتركة بالحملة. ولم تصل القوات إلى بلاد المسلمين .

٣ـ الحملة الصليبية الخامسة (حملات الأطفال) :

لقد كان من المتوقع في المناخ الذي صنعته الكنيسة أن تصبح الدعوة للحرب الصليبية هي سمة العصر وزيّه ـ مودة ـ وفي سنة ١٢١٢م ظهر صبي راع في فرنسا لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، واسمه «ستيفن» وتولى الدعوة للحرب الصليبية. وأخذ في التجول عبر الأقاليم، وأمكن له حشد أكثر من ثلاثين ألف طفل، سار بهم إلى مارسيليا حتى ينشقّ البحر ويستمرون في طريقهم إلى فلسطين ، ولكن البحر لم ينشقّ كما حدث مع موسى ﷺ ، فتقدم تاجران من تجار مارسيليا اسم أحدهما «هيو الصُلب» واسم الآخر «وليم الخنزير» وأخذا على عاتقهما نقل الأطفال إلى فلسطين. ولم يعد بعد ذلك هناك مَن يعرف ما انتهى إليه مصير الأطفال . ولكن بعض الشواهد تشير إلى أن التاجرين قد عملا على بيع الأطفال في مصر والجزائر .

وفي ألمانيا ظهر طفل آخر اسمه «نقولا» وتولى الدعوة، وحشد الأطفال وتوجه بهم إلى إيطاليا حيث تم توزيعهم على جمهورية البندقية والمدن الإيطالية الأخرى . وعاد مَن استطاع منهم إلى بلاده . ولكن أحداً لم يصل إلى فلسطين .

بالرغم عن هذه النتائج المخيبة للآمال فلا زال البابا «انوسنت» الثالث يعتقد أن بإمكانه توجيه حملة صليبية جديدة ، فقرر عقد

مجمع كبير للكنيسة في روما – في سنة ١٢١٥م – ووجه الدعاة للتحريض من أجل حملة صليبية وعقد مجلس «اللاتيران» في سنة ١٢١٥م. وتقرر دعم الإمارات الصليبية في فلسطين (وتوجيه الحملة في حزيران –يونيو– ١٢١٧م) . ولم يعش البابا «انوسنت» ليشهد نتيجة جهوده ، إذ توفي في ١٦ تموز – يوليو– ١٢١٦م وتم انتخاب الكاردينال «سافيللي» باسم البابا «هونوريوس» الثالث. وبدأ هذا عهده بمتابعة ما بدأ به سلفه ... ولم تلق عملية التبشير للحرب الصليبية استجابة طيبة بمثل ما لقيته في بلاد الراين السفلى، وفي صيف ١٩١٧م وصل إلى صقليا جماعات من الفرسان الفرنسيين. كما وصل جيش ملك المجريين إلى «سبالاتو» في «دالماسيا» في آب ـ أغسطس– ١٢١٧م ولحق بـه فيها «ليوبولد» دوق «اوستريا» بجيشه. ووصلت الحملة في النهاية إلى عكا في (٢٦ نيسان –إبريل– ١٢١٨م) وسارت الحملة إلى مصر، تنفيذاً لمقررات مجمع «اللاتيران» التي جعلت مصر هي هدف الحملة. وقام الملك «الكامل» بالتعامل مع هذه الحملة .

فترت حماسة الغرب للحروب الصليبية ، وجاء فشل حملة الملك «لويس القديس» (التاسع) على مصر ليبرهن على أن مد الصليبية قـد انتهى . وأصبح القلق يهيمن على ملوك الغرب في موضوع بقاء تلك المملكة التي أقاموها في قلب العالم الإسلامي، وعلى هذا فقد أخذ البحث عن حلفاء يمكن لهم إكمال ما عجز الفرنج عن تحقيقه .

وفي هذه الفترة كانت قوة المغول ـ التتار ـ في التعاظم،

واجتذبت إليها أنظار الطامعين في القضاء على العالم الإسلامي . وبدأت الاتصال بين مسيحيي المغرب ووثنيي المشرق .

٤ً- الاتصالات مع التتار (الصليبيون والتتار) :

كان البابا «انوسنت الرابع»[١] أول مَن بذل جهوده لإنقاذ العالم المسيحي - على ما يزعمه - عن طريق التحالف مع المغول، وأرسل في سنة ١٢٤٥م = ٦٤٣هـ سفارتين إلى منغوليا - حيث بلاط الخان الكبير - فغادرت السفارة الأولى برئاسة الراهب الفرنسيسكاني « يوحنا بيان دل كاربيني » مدينة ليون في شهر نيسان - إبريل - من تلك السنة . وبعد أن أمضت خمسة عشر شهراً في اجتياز روسيا وسهول آسيا الوسطى، وصلت إلى المعسكر الامبراطوري في «سيرا أوردو» الواقع قرب «قراقورم» في آب

(١) انوسنت Innocent (Saint) اسم حمله عدد من الباباوات : انوسنت الأول (٤٠٢-٤١٧م) انوسنت الثاني (من ١١٣٠-١١٤٣م) انوسنت الثالث (البابا من سنة ١١٩٨-١٢١٦م) وهو المعروف بدوره في مجابهة ملك فرنسا «فيليب أغسطس» ومجابهة ملك إنكلترا «جان بلا أرض» وهو الذي تولى المبادأة في الحملة الصليبية الرابعة . انوسنت الرابع (البابا من سنة ١٢٤٣-١٢٥٤م) ثم انوسنت الخامس (البابا في عام ١٢٧٦م) وانوسنت السادس (البابا من ١٣٥٢ إلى ١٣٦٢م) انوسنت السابع (البابا من سنة ١٤٠٤-١٤٠٦م) انوسنت الثامن (بابا من سنة ١٤٨٤-١٤٩٢م) انوسنت التاسع (بابا سنة ١٥٩١م) انوسنت العاشر (البابا من سنة ١٦٤٤-١٦٥٥م) انوسنت الحادي عشر (البابا من سنة ١٦٧٦-١٦٨٩م) انوسنت الثاني عشر (بابا من سنة ١٦٩١-١٧٠٠م) انوسنت الثالث عشر (بابا من سنة ١٧٢١-١٧٢٤م) .

–أغسطس– سنة ١٢٤٦م. وكان وصول السفارة في وقت مناسب توافق مع انعقاد المجلس «فوريلتاي» الذي انتخب «كيوك» خاناً كبيراً. وأحسن «كيوك» استقبال رسول البابا، نظراً لكثرة عدد المسيحيين –النساطرة– بين مستشاريه، غير أنه حينما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها أن يعتنق المسيحية، كتب رداً عليها بأنه طلب إلى البابا أن يعترف بسيادته العليا وأن يقدم عليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا يمين التبعية. ولما عاد «يوحنا بيان دل كاربيني» إلى المجلس البابوي في نهاية سنة ١٢٤٧م. قدم إلى البابا «انوسنت الرابع» مع هذه الرسالة المخيبة للآمال تقريراً مفصلاً أشار فيه إلى أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح.

لم يحبط هذا الفشل من عزيمة البابا «انوسنت الرابع» فعمل على تشكيل سفارة جديدة، وعيّن لرئاستها الراهب الدومينيكاني «اسكلين اللومباردي». وغادرت هذه السفارة المقر البابوي بعد فترة قصيرة من عودة السفارة الأولى، فاجتازت سوريا والتقت في «تبريز» بالقائد المغولي «بيجو» في شهر أيار–مايو– سنة ١٢٤٧م.

وعلى الرغم من أن «اسكلين» قد وجد في «بيجو» رجلا يميل إلى العدوان والهجوم، إلا أن «بيجو» أظهر استعداده لمناقشة قيام تحالف ضد الأيوبيين. وجعل أساس خطته القيام بالهجوم على بغداد، ولذا فقد كان من مصلحته قيام حملة صليبية تصرف مسلمي الشام عنه. وأرسل «بيجو» مرافقَين هما «إيبك» و «سركيس» ليصحبا «اسكلين» في عودته إلى روما. ومع أنه

لم يكن لهذين الرسولين سلطات السفراء المفوضين ، فإن الآمال انتعشت من جديد في الغرب .

ومكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا ، ثم حدث في تشرين الثاني –نوفمبر– ١٢٤٨م ، أن أُخطرا بأن يعودا إلى «بيجو» بعد أن جرى الإعراب لهما عن الأسف بأنه لم يطرأ شيء جديد على التحالف .

كانت قبرص هي منطقة الحشد لكل القوات الصليبية قبل توجهها إلى بلاد المسلمين ، وتصادف أثناء إقامة ملك فرنسا «لويس التاسع» في قبرص ، أن وصل إلى نيقوسيا في شهر تشرين الثاني – نوفمبر– سنة ١٢٤٨م مبعوثان نسطوريان وهما «مرقص» و «داوود» أرسلهما القائد المغولي «الجيهيداي» يحملان رسالة خاصة تؤكد عطف المغول على المسيحية . فأعرب «لويس» عن اغتباطه وبادر بإرسال بعثة مؤلفة من رهبان دومينيكانيين برئاسة «أندرو لونغجيمو» وأخيه اللذين يتحدثان العربية . وحمل الأخَوان معهما كنيسة متنقلة تعتبر هدية تليق بـ « الخان» – حديث العهد باعتناق المسيحية – مع ما يلزم مذبحها من التوابع الدينية ، فضلاً عن هدايا أخرى دنيوية .

وغادرت البعثة جزيرة قبرص في كانون الثاني –يناير– سنة ١٢٤٩م قاصدة معسكر «الجيهيداي» الذي أرسل البعثة إلى منغوليا. وعندما وصلت إلى «قراقورم» تبين لها أن الامبراطور «كيوك» قد مات ، وأن أرملته «أغول فاميش» تولت الوصاية

على العرش، فاستقبلت البعثة بجفاوة بالغة . على أن المشاكل التي برزت في بلدها منعتها من إرسال حملة ضخمة إلى الغرب .

وحملت البعثة رسالة تضم شكر الإمبراطورة على اهتمام الملك «لويس» ، وبالرغم مما حملته الرسالة من السلبية ، إلا أن الملك «لويس» لا زال يأمل في أن يتحقق التحالف مع المغول .

وتوجه الملك «لويس» بعدئذ بحملته إلى مصر، وخرج منها مهزوماً ، فعاوده الأمل بالعثور على حلفاء يضطلعون – بالوكالة عنه – بأعباء الحرب الصليبية ضد المسلمين . لا سيما وقد ظهر للملك «لويس» أنه لم يعد هناك ثمة أمل في قدوم حملة صليبية جديدة من أوروبا . إذ أن «هنري الثالث» ملك إنكلترا الذي سبق أن وعد بالإشتراك مع عدد كبير من رعاياه في حملة صليبية في ربيع سنة ١٢٥٠م، أقنع البابا بأن يسمح له بإرجاء أية حملة، ورفض أشقاء الملك «لويس» إرسال مساعدة من فرنسا .

واشتدت ثائرة الرأي العام في فرنسا، غير أنه لم يكن مخدوعاً، فحينما وصل أول نبأ عن كارثة المنصورة ، اجتاح البلاد حركة جنونية للرعاع المؤلفين من الفلاحين والعمال الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «الرعاة» [(١)] ، وتولى قيادتهم قائد اتخذ لنفسه لقباً غريباً هو «سيد المجر» وأخذوا يعقدون اجتماعات ، اتهموا فيها علناً البابا وأكليروسه ، ونذروا بأنهم سوف ينجدون الملك المسيحي. وبذلت لهم الملكة الوصية «بلانش» تأييدها أول الأمر،

---

(١) Pastouraux .

غير أنه وقع بينهم من الاضطراب والخلل ما قضى بضرورة قمعهم. أما النبلاء الفرنسيون فقنعوا بما وجهوه من تلميحات مريرة إلى البابا، الذي آثر الدعوة إلى حملة صليبية لقتال أنصار الإمبراطور من المسيحيين ، على أن يبعث بمساعدة إلى أولئك الذين يقاتلون المسلمين . ومضت «بلانش» إلى أبعد من ذلك ، فصادرت أملاك كل تابع استجاب لنداء البابا «انوسنت الرابع» للاشتراك في حملة صليبية لقتال الملك «كنراد» سنة ١٢٥١م، غير أنه لم يكن بوسعها أو بوسع مستشاريها أن يجرؤوا على إرسال حملة إلى الشرق .

وإذ سعى الملك «لويس» لالتماس حلفاء أجانب دخل مع الإسماعيلية (الحشيشية) في أشد ما تكون العلاقات وداً وصداقة. إذ حدث بعد فشل الحملة في دمياط أن أرسل زعيم «الحشيشية» في الشام إلى عكا يطلب من «لويس» أن يؤدي له مالاً مقابل التزام «الحشيشية» الحياد . غير أنه أزعجه ما أعطاه الملك لرسله من إجابة حاسمة بحضور مقدمي الطوائف الدينية العسكرية .

والواقع أن طائفة الإسماعيلية قد طلبت بصفة خاصة أن تتحلل من الالتزام بدفع جزية للاستبارية . على أن السفارة الإسماعيلية التالية كانت أكثر تواضعاً ، إذ حملت معها إلى الملك الهدايا الفائقة ، وطلبت إقامة تحالف وثيق بينهما .

ونظراً لما يعلمه الملك «لويس» من العداوة التي تكنها الإسماعيلية (الحشيشية) للمسلمين السنيين فقد شجع خطوتهم ، وأرسل «بيف البريتوني» للاتفاق على عقد معاهدة .

واستهوى «بيف البريتوني» محتوى المكتبة الـــتي امتلكها الإسماعيلية في «مصياف» . إذ عثر فيها على موعظة من «سفر الأخبار» وجهها السيد المسيح إلى«القديس بطرس»، الذي يعتبر وفقاً لما ذكره رجال مذهب الإسماعيلية تجسيداً آخر لـ «هابيل» و «نوح» و «إبراهيم» . وتم بينهما إبرام معاهدة للدفاع المشترك . على أن أهم ما كان يطمح «لويس» لتحقيقه من الناحية الدبلوماسية هو أن يظفر بصداقة المغول ألد عدو للاسماعيلية.

وحدث في بداية سنة ١٢٥٣م. أن وصل إلى عكا تقرير يفيد بأن أحد أمراء المغول – وهو سارتاق بن باطو – قـد تحول إلى المسيحية ، فبادر «لويس» إلى إرسال راهبين دومينيكانيين همـا «وليم روبروق» و «بارثولوميو الكريموني» كيما يحثا الأمير المغولي على النهوض لمساعدة إخوانه المسيحيين في بلاد الشام. غير أنه لم يكن لأمير صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغة الأهمية.

ولما وصل «وليم روبروق» إلى بلاط الخان الكبير ، في الأيام الأخيرة من سنة ١٢٥٣م، صادف حكومة تختلف اختلافاً كبيراً عـن تلك التي سبق أن احتفلت بـ «أندرو لونغ جيمو» المبعوث السابق للملك «لويس» . فحينما مات «كيوك بن أوكيتاي» سنة ١٢٤٨م قامت أرملته «أوغول قيميش» بالوصاية على أبنائها الصغار «قوشو» و «نقو» و «قوغو» غير أنها لم تكن تصلح للحكم وما من أحد من أبنائها كان يبشر بكفاءة قيادية عالية. وظهرت معارضة قوية ضد وصاية «قيميش» فانعقد المجلس الوطني «القوريلتاي»

وانتخب «منكو» خاناً كبيراً في أول تموز – يوليو – سنة ١٢٥١م. ودارت رحى معارك خرج منها «منكو» وأخوته «قبيلاي» و «هولاكو» و «أريق بوقا» منتصرين. وإذ تولى «منكو» العرش، أحيا المغول سياستهم التوسعية، وعاد كبار الأمراء إلى حكوماتهم. إذ صارت الأقاليم الشرقية موكولة إلى «قبيلاي» ثاني أخوة «منكو»، فنهض لفتح الصين بكل ما توافر له من نشاط وما اتخذه من أساليب وطرق. وتحول «قبيلاي» إلى البوذية، واتسمت حروبه ومعاملته للمغلوبين على أمرهم بالرفق والإنسانية. أما «منكو» فقد بقي مع شقيقه الأصغر «أريق بوقا» في «قراقورم» بمنغوليا للإشراف على ضبط هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف. أما ورثة «جغتاي» في تركستان، فشرعوا في القيام بمحاولات تمهيدية لمد سلطانهم إلى الهند عبر «هضبة البامير». ونقل «باطو» – نائب «الخان» في الغرب – مقره إلى الروافد السفلى لنهر «الفولغا» حتى يسيطر على أتباعه الأمراء في روسيا. وأنشأ بتلك الجهات «الخانية» التي أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم «القبجاق» والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم «القبيلة الذهبية»[1]. أما حكومة فارس فانتقلت إلى يد «هولاكو» – ثالث أخوة منكو – فأضحت جهود المغول الرئيسية موجهة إلى طرف فارس وطرف «قبيلاي» في الشرق.

وهكذا بدأت سفارة «روبروق» مهمتها وسط صراعات التتار

---

(١) القبيلة الذهبية Golden Horde.

الداخلية ، فقد اجتاز «روبروق» في سفره عاصمة «باطو» على نهر الفولغا ، حيث التقى بـ «سارتاق بن باطو» الذي اشتهر بميله للمسيحيين على الرغم من أنه لم يكن مسيحياً، فبعث به «باطو» إلى منغوليا . وتولت الحكومة الإنفاق عليه في سفره على امتداد الطريق التجاري الطويل . وتهيأت له أسباب الراحة والأمن في الطريق الموحش حيث كانت تمضي أياماً بأكملها دون العثور على دار واحدة. ثم وصل في نهاية كانون الأول –ديسمبر– سنة ١٢٥٣م إلى معسكر «الخان» الكبير الذي يقع على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من «قراقورم». فمثل بين يدي «منكو» في (٤ كانون الثاني – يناير– سنة ١٢٥٤م =٦٥٢هـ)، ولم يلبث أن ارتحل مع البلاط إلى «قراقورم» . فألفى الحكومة المغولية قد عزمت فعلاً على مهاجمة المسلمين في غربي آسيا ، وأنها على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من تدابير مشتركة. على أنه اعترض ذلك عقبة لم يتيسر التغلب عليها ، ذلك أن «الخان الكبير» لا يقبل مطلقاً أن يكون في العالم سيد سواه . وكانت سياسته الخارجية بسيطة جداً ، فأصدقاؤه يعتبرون أتباعاً له . وأما أعداؤه فيجب إبادتهم أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له .

وتلقى «وليم روبروق» وعداً صادقاً بأن ينال دعماً كبيراً طالما قدم أمراء الصليبية الولاء لسيد العالم . على أن ملك فرنسا لا يستطيع التفاوض على أساس هـــذا الشرط . وغادر «وليم روبروق قراقورم في شهر آب –أغسطس– سنة ١٢٥٤م بعد أن أدرك مثلما أدرك كثيرون من السفراء الذين جاؤوا بعده إلى بلاط

ملوك أقاصي آسيا – أن ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد الدبلوماسية الغربية الملتوية أو مبادئها المعقدة. فارتحل راجعاً إلى بلاط «باطو» بعد أن اخترق آسيا الوسطى . ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينيا ومنها إلى عكا .

٥ً– الأرمن والتتار :

كانت مملكة الأرمن بقلقيليا أول الإمارات المجاورة للبحر الأبيض المتوسط والتي أدركت أهمية التعاون مع المغول. والمعروف أن الأرمن شهدوا في اهتمام بالغ ما أصاب الجيش السلجوقي المسلم من هزيمة مدمرة في (سنة ١٢٤٣م=٦٤١هـ) أمام الحملة المغولية التي قادها أحد ولاة الأقاليم . فصار بوسعهم تقدير مـا يكون عليه جيش الامبراطور من قوة لا سبيل إلى مقاومتها. ولهذا عمل ملك أرمينيا «هيثوم» كتاباً إلى «بيجو» في سنة ١٢٤٣م يفيض بالولاء والاحترام . غير أن المغول انسحبوا وقتئذ، واسترد «كيخسرو» ما فقده من أراضيه ببلاد الأناضول، وأخذ من جديد في الضغط على أرمينيا. ويساعد الأمير الأرمني الثائر «قسطنطين سيد لامبرون». **وقدر «هيثوم» أن المغول – التتار – سوف يعودون ، وأنه سوف يكون لهم أهمية كبرى وقيمة ثمينة بالنسبة للعالم المسيحي في بلاد الشام بصورة عامة وله بصفة خاصة .** فأرسل في سنة ١٢٤٧م أخاه «الكندسطبل سمباد» في سفارة إلى بلاط «الخان» الكبير . فوصل «سمباد» إلى «قراقورم» قبيل وفاة «كيوك» في سنة ١٢٤٧م. واستقبله «كيوك» بحفاوة بالغة ، ولمـا سمع بأن

«هيثوم» مستعد لأن يعتبر نفسه من أتباع «الخان الكبير»، وعد بأن يبذل للأرمن المساعدة اللازمة لاسترداد ما انتزعه السلاجقة من المدن. ورجع «سمباد» يحمل تقليداً من «الخان الكبير» يكفل سلامة ممتلكات «هيثوم» بأن تولى عرش المغول «خان» آخر قوي توجه إلى «قراقورم». وكانت «قراقورم» قد أصبحت في تلك الفترة مركز نشاط الدبلوماسية في العالم، فحينما وصل إليها «وليم روبروق» سفير الملك «لويس» التاسع سنة ١٢٥٤م، التقى هناك بسفارات من قِبَل الامبراطور اليوناني، ومن عند ملك دلهي، ومن جهة الخليفة العباسي، ومن قِبَل السلطان السلجوقي، كما صادف أمراء من الجزيرة الشامية وكردستان وروسيا. وجميعهم يقفون في خدمة «الخان الكبير». **وظهر له أنه كان للمسيحيين النساطرة أقوى نفوذ ديني، وحباهم «منكو» بعطف خاص، تخليداً لذكرى أمه «سور جقتاي». كما كانت الامبراطورة «كوتوكتاي» وكثيرات من زوجاته الأخريات على المذهب النسطوري أيضاً** [1].

(١) يظهر أن نشر المذهب النسطوري في بلاط «الخان» كان سياسياً أكثر منه دينياً، ويظهر ذلك من موقف سفير الملك «لويس» التاسع إلى بلاط الخان «وليم روبروق» والذي أعلن « ارتياعه لما كان عليه رجال الكنيسة - النساطرة - من الجهل والانغماس في المباذل، فلم تزد صلواتهم على فجور السكارى، وشهد في يوم من أيام الآحاد الامبراطورة تترنح عند عودتها من القداس. وكلما ساءت أموره نزع إلى إلقاء اللوم على مـا وقع من تنافس في هذه الهيئة الملحدة ».

(تاريخ الحروب الصليبية ٣/٥١٠)

ووصل إلى «قراقورم» ملك أرمينيا «هيثوم» عقب رحيل «وليم روبروق». وقدم من تلقاء نفسه على أنه تابع للخان الكبير. وحاز حظوة خاصة عنده، نظراً لأن سائر الزائرين الأجانب، إما كانوا أتباعاً جرى استدعاؤهم برغم إرادتهم، وإما كانوا ممثلين لملوك أظهروا حرصهم على استقلالهم. ففي حفل الاستقبال الرسمي الذي أقـامه له «منكو» في ١٣ أيلول – سبتمبر – سنة ١٢٥٤م منحه الخان وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة، وعدم انتهاك حرمتها. وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري «الخان» المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا. ووعده «منكو» بأن يعفي كل الكنائس المسيحية والأديرة من الضرائب. وصرح بأن أخاه «هولاكو» الذي استقر في فارس، قـد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد وتدمير سلطان الخلافة. وتعهد بأنه إذا تعاونت معه كل القوى المسيحية فسوف يعيد إلى المسيحيين بيت المقدس ذاتها.

وغادر «هيثوم» قراقورم في أول تشرين الثاني – نوفمبر – سنة ١٢٥٤م مثقلاً بالهدايا، ومبتهجاً بما تكللت بـه جهوده من نجاح. وارتحل عائداً إلى بلاده وقـد سلك طريق تركستان – فارس، حيث بذل لـ «هولاكو» مظاهر الاحترام، ثم عاد إلى أرمينيا في شهر تموز – يوليو – التالي (سنة ١٢٥٥م = ٦٥٣هـ).

وكان «هيثوم» ينطلق في تفاؤله من احتمال قيام «خانية» مسيحية كبيرة، وأن هذه «الخانية» رغم تبعيتها «للخان»، إلا أنها ستخرج في الوقت المناسب من يد السلطة المركزية في

منغوليا . ويؤكد ذلك ما كان يفكر به ملك فرنسا «القديس لويس» بأن المغول سوف يصبحون أبناء أوفياء لكنيسة روما ، وما قد يقوم في غرب آسيا من إمارات مسيحية لن تبقى مستقلة. فما قد يحرزه المغول من انتصار سيفيد العالم المسيحي في مجموعه . أما الفرنج بالمشرق العربي والذين أدركوا اتجاه «الخان الكبير» نحو الأمراء المسيحيين فإنهم كانوا يفضلون التعامل مع المسلمين الذين عرفوهم بدلاً من التعامل مع هذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس والقادم من الصحارى النائية ، والذي كان سجله في شرقي أوروبا حافلاً بالمذابح .

على أن محاولة «هيثوم» لإقامة تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول لقيت قبولاً حسناً من المسيحيين الذين أعلنوا انحيازهم إليه وفي طليعتهم «بوهمند» أمير أنطاكية الذي خضع لنفوذ صهره «هيثوم» . أما الفرنج بآسيا فالتزموا الحياد .

ظهر واضحاً أن العالم الإسلامي قد بات مهدداً بخطر لم يعرفه من قبل . فهؤلاء المغول – التتـــار – قوة لا تعرف غير الإبادة والتدمير ، وهي قوة تتفوق بوحدة قيادتها وبشدة بأس مقاتليها في حين كانت الحروب الصليبية قد استنزفت قدراً غير يسير من قدراته القتالية علاوة على تلك الانقسامات الداخلية التي أضعفت القدرة على المجابهة والصمود . وظهر أنه مـــا من خيار مفتوح سوى الاستسلام أو مجابهة خطر الإبادة . وكان من المحال على الإنسان المسلم الاستسلام ، فكان لا بد من مجابهة خطر التدمير.

وصحيح أن جيش التتار قد أصبح وهو يسيطر على مساحات واسعة من بلاد المسلمين ، وضم إليه أيضاً مجموعات كبيرة منهم مما يجعل خطر استئصال المسلمين صعباً إن لم يكن من المحال تحقيقه. إلا أن ذلك لا يعني الانقاص من خطر القضاء على الكيان السياسي لدولة المسلمين .

وقد يكون من الضروري تكوين فكرة عن هذه القوة الطاغية التي ظهرت على مسرح الوجود لتهدد بإزالة الإسلام والقضاء على المسلمين . والتي استطاعت في الواقع التأثير على مستقبلهم تأثيراً غير قليل ، ولكنها لم تحقق أهدافها الكاملة بالرغم عما توفر لها من التفوق المادي .



الفَصْلُ الثَّانِي

المغول والمسلمون (عين جالوت)

١ً– المغول والتتار.

٢ً– المغول في القوقاز وفي أوروبا .

٣ً– هولاكو يقود الحرب .

٤ً– من بغداد إلى دمشق .

٥ً– الوضع الخاص قبل عين جالوت .

٦ً– المظفر قطز – وعين جالوت .

٧ً– ما بعد عين جالوت (الثأر) .

المغول والمسلمون

«إن اتساع مسرح العمليات، وحركية القطاعات الواسعة والاستخدام الأريب للمباغتة، جعلت معارك التتار – المغول – تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ إن لم تتفوق عليها».

(الكاتب العسكري البريطاني ليدل هارت)

١ً – المغول والتتار:

كثيراً ما تستخدم تسمية «المغول» كاسم مرادف لاسم «التتار»، وفي الواقع فالمغول والتتـار فرعان متمايزان لأصل واحد. وقد يكون من الضروري معرفة هـذا التمايز من خلال العودة لنشأة إمبراطورية المغول التي أسسها شاب مغولي اسمه «تيموجين»، وعرف في التاريخ بعدئذ باسم «**جنكيز خان**» والذي وُلد في سنة ١١٦٧م – أي قبل عشرين سنة من استرداد «صلاح الدين» بيت المقدس للمسلمين. وكان والد «تيموجين» زعيم مغولي اسمه «يسوكاي» ووالدته «هويلون» وقد وُلد في موضع على شاطيء

نهر «أونون» في شمالي شرقي آسيا. ولم يكن المغول في تلك الفترة أكثر من مجموعة من القبائل الضاربة في أعالي نهر «آمور» التي تعيش في حرب دائمة بينهم وبين جيرانهم النازلين إلى الشرق منهم – وهم التتار – . والمعروف أن «كابل خـان» جد «يسوكاي» نظم هذه القبائل في حلف ضعيف لم يلبث أن تمزق بعد وفاته ، مما ساعد إمبراطور الصين الشمالية «كين» على توطيد سلطته في كل المنطقة . **ولم يرث «يسوكاي» إلا شطراً صغيراً من الحلف القديم ، غير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته ، مـا أنزله من الهزيمة ببعض قبائل التتار وإخضاعها .** وما حدث من تدخله في أمور «خـان الكرايث» الذي يعتبر أعظم جيرانه المباشرين مدنية. و«**الكرايث**» شعب شبه بدوي ، ينتمي إلى أصل تركي ، استقر بالأقاليم الواقعة حول نهر «أورخون» في أقصى أطراف منغوليا الحالية .

وفي أوائل القرن الحادي عشر تحول ملكهم ومعظم رعاياه إلى الديانة المسيحية – على المذهب النسطوري – وأدى تحـول «الكرايث» إلى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك «**الأويغور**» ، الذين كان بينهم عدد كبير من النساطرة . وسبق للأويغور أن أقاموا حضـــارة مستقرة في موطنهم في وادي «نهر التاريخ» ومنخفض «طورفان» ، وابتكروا أبجدية للغة التركية استندت إلى الحروف السريانية. وفي الأزمنة المتقدمة سادت بينهم الديانة المانوية ، على أن المانويين نزعوا تحت تأثير الصينيين إلى أن يتحولوا إلى البوذية .

ومع أن سلطان «الأويغور» أخذ في التداعي، فإن مدنيتهم امتدت إلى «الكرايث» و «النايمان» نظراً لأن بلاد «الأويغور» تقع بين هذين الشعبين التركيين.

وعندما مات «كورياكوس» ابن «ميرجوزخان» – خان الكرايث – في سنة ١٢٧٠م صادف ابنه «طغرل» بعض العقبات في الاستحواذ على ملكه نتيجة معارضة أخوته وأعمامه. على أنه ظفر بحروبه على أخوته وأقاربه وذلك بفضل مساعدة «يسوكاي» الذي صار أخاً له بحكم ما تعاهدا عليه وأقسما من يمين. فهيأت هذه الصداقة لـ «يسوكاي» مكانة رفيعة بين زعماء المغول، غير أنه مات قبل أن يستقر «خاناً أعظم» للمغول. إذ دس له السم بعض التتار الرحل الذين كان يشاركهم طعام العشاء، ولم يتجاوز ابنه الأكبر «تيموجين» أو «جنكيزخان» وقتذاك التاسعة من عمره. على أن ما اشتهرت به «هويلون» أرملة «يسوكاي» من الكفاءة هو الذي حفظ لابنها «تيموجين» قدراً من السلطان على قبائل أبيه.

وأمضى «تيموجين» طفولة عاصفة إذ برهن على كفاءته القيادية منذ كان صغيراً. فلم تكن تأخذه رحمة بمنافسيه ولا رأفة حتى لو كانوا من أقربائه وأسرته.

ففي أثناء الحروب التي ظفر فيها بالسيادة على المغول وقع لفترة من الزمن أسيراً في أيدي قبيلة «تايجيوت» كما أن «بؤركة» التي تزوجها وهو في السابعة عشرة من عمره، ظلت بضعة شهور في أسر «الترك المركيت» النازلين عند بحيرة «بايكال»، ولهذا حامت

الشكوك حول شرعية بنوة ولدها الأكبر «جوجي» الذي تمت ولادته أثناء أسرها ، على أن توالي انتصارات «تيموجين» يرجع إلى حد كبير إلى تحالفه مع «طغرل» خان الكرايث الكبير ، الذي بلغ من محبته له أنه اعتبره «تيموجين» والداً له ، وقد ساعده «طغرل» في حروبه مع المركيت .

وحوالي سنة ١٢٩٤م تم اختيار «تيموجين» ملكاً أو خاناً على جميع المغول، واتخذ اسم «جنكيز» أي «القوي» . ولم يلبث أن تلى ذلك اعتراف امبراطور الصين «كين» بـ «جنكيز خان» ، على أنه «خاناً أعظم» على المغول، وظفر بتحالفه لمناهضة التتار الذين كانوا يهددون حدود الصين . وأدت حرب خاطفة إلى خضوع التتار لحكم «جنكيز خان». ولما جرى طرد «طغرل خان» من عرش الكرايث سنة ١١٩٧م كان «جنكيز خان» هو الذي أعاده للحكم ، ثم انحاز «جنكيز خان» بقواته سنة ١١٩٩م إلى «طغرل خان» فأنزل الهزيمة بـ «النايمان الترك» .

واستمر «جنكيز خان» في إخضاع «الترك النايمان» ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى فرض «جنكيز خان» سيطرته على كل القبائل النازلة بين حوض نهر «التاريم» ونهر «أمور» وسور الصين العظيم . وأصبح بالإمكان بعد ذلك عقد مجلس أو «قوريلتاي» لكل زعماء القبائل التابعة له في سنة ١٢٠٦م، وعلى شاطيء نهر «اونون» حيث أعلن موافقته على ما اتخذه «جنكيز خان» من اللقب الملكي. كما أعلن أنه ينبغي أن **تعرف كل أقوامه في مجموعها باسم «المغول»** .

وانصرف «جنكيز خان» لتنظيم امبراطوريته التي تألفت من مجموعة القبائل التي لم يحاول التدخل في شؤونها الداخلية، وكل مـا فعله هو أنه فرض أسرته المعروفة باسم «التن اوروك» أي «القبيلة الذهبية». وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون، وجعل للعشائر الحرة أعداداً كبيرة من الأرقاء الذين اتخذهم من القبائل التي قاومته ثم قهرها، ومنح أقاربه وأصدقاءه الألوف من الأرقاء. ففي «القوريلتاي» الذي انعقد سنة ١٢٠٦م، بذل لكل من أمـــه «هو يلون» وأخيه «تيموجيه» أو «تشين» عشرة آلاف أسرة ملكاً له، وجعل لكل من أبنائه الصغار خمس أو ست آلاف أسرة. أمـا القبائل أو المدن التي خضعت له دون قتال، فإنه لم يتدخل في أمرها بل تركها وشأنها، طالما احترمت قوانينه ثقيلة الوطأة، وأدت لجباة الضرائب ما طلبه من أتاوة باهظة.

وأصدر «جنكيز خان» مجموعة القوانين المعروفة في التاريخ باسم «الياسة» أو «الياساك» والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في «الاستبس»، وذلك بهدف ربط الأقاليم بعضها ببعض. وقد صدرت «الياسة» مجزأة طوال حكمه وحددت مـا للقبائل وزعمائها من حقوق وامتيازات، مع تحديد ما هو مقرر «للخان» من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات وقواعد نظام الضرائب، فضلاً عن مبادىء القانون الجنائي والمدني والتجاري.

ولم يكد «جنكيز خان» ينظم إدارة امبراطوريته حتى شرع

في توسيع حدودها . فقد أضحى لديه جيش ضخم أولى اهتماماً كبيراً لتنظيمه . إذ إن كل أفراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة سنة والستين سنة يلتزمون بالخدمة العسكرية وفقاً للعرف المغولي والتركي. ولم تكن حملات الصيد في كل شتاء لامداد الجيش والبلاط باللحوم ، أكثر من مناورات لتدريب المقاتلين بصورة مستمرة. وكانت القبائل تؤلف جيشاً من الفرسان والرماة والرماحة الذين يستخدمون الخيول السريعة العدو، ودرج الرجال والفرسان منذ الولادة على ممارسة الحياة القاسية والقيام بأسفار بعيدة عبر الصحاري، وليس لديهم إلا قدر قليل من الزاد والماء. **وكان هذا الارتباط بين سرعة الحركة والنظام والأعداد الضخمة هو الطابع المميز لجيش المغول .**

استطاع «جنكيز خان» أن يستثمر التناقضات في الدول المجاورة له ، فسيطر على مملكة «كين» في شمال الصين وضم إليه منشوريا واعترفت كوريا بسيادته . وأصبح باستطاعته التوجه نحو الجنوب الغربي لتركيز الجهد ضد دولة المسلمين التي وصلت خلال تلك الفترة إلى أوج قوتها بقيادة «محمد خوارزم شاه» . وكان هذا قد نظم الدولة الخوارزمية بحيث باتت تمتد من كردستان والخليج العربي حتى بحر «آدال» وهضبة «بامير» ونهر «السند» . ولم يكن «محمد خوارزم شاه» بالرجل الذي يتسامح مع منافس يتهدده .

ورغم تبادل السفارات بين «جنكيز خان» و «محمد خوارزم شاه»، إلا أن «جنكيز خان» أخذ في استثارة منافسه، وطلب

«جنكيز خان» – باعتباره خاناً على الشعوب التركية المغولية – إلى الأمير الخوارزمي أن يعتبره سيداً عليه .

وحدث في سنة ١٢١٨م أن ارتحلت من منغوليا قافلة كبيرة من التجـار المسلمين وبرفقتهم مائة من المغول تقرر إرسالهم في سفارة خاصة إلى البلاط المغولي، فلما بلغت القافلة مدينة «اوترار» الواقعة على نهر «سيحون» –في أملاك محمد خوارزم شاه– أجهز حاكم «أوترار» على المسافرين وسلب بضاعتهم التي جرى حمل نصفها إلى «محمد خوارزم شاه» ، وأصبحت الظروف مهيأة أمام «جنكيزخان» للنهوض وقتال الخوارزمية. وكان ذلك مشروعاً بالغ الخطورة . إذ كان بوسع «محمد خوارزم شاه» أن يزج في ميدان القتال نصف مليون رجل. كما أن «جنكيزخان» سيقاتل على مسافة تبعد ألف ميل عن بلاده .

غادر الجيش المغولي المكون من مائتي ألف مقاتل بقيادة «جنكيز خان» معسكره عند نهر «أرتيش» في أواخر صيف سنة (١٢١٩م=٦١٦ هـ). وانضم إليه أثناء سيره نحو الغرب أتباعه من الملوك .

ولما كان «محمد خوارزم شاه» يجهل المكان الذي سيوجه منه المغول ضربتهم، فقد عمل على تقسيم جيشه بين خط نهر «سيحون» وممرات «فرغانة»، واحتفظ بالكتلة الرئيسية من جيشه في المدن الهامة بإقليم مـا وراء النهر أمثال «بخارى» و «سمرقند» . وتوجه الجيش المغولي مباشرة نحو الحوض الأوسط لنهر «سيحون»،

فاجتاز النهر عند «اوترار» وتولت قوة من الجيش المغولي حصار المدينة الذي استمر فترة غير قصيرة، في حين هبط قسم من الجيش ليسير مع النهر بهدف مهاجمة الجيش الخوارزمي على ضفتي نهر «سيحون» . وتوجهت قوة ثالثة من الجيش صعداً مع النهر لقطع الطريق على الجيش الخوارزمي في «فرغانة» .

وزحف «جنكيز خان» بقواته الأساسية على «بخارى» فوصلها في شهر شباط –فبراير– سنة ١٢٢٠م = ٦١٧هـ. فبادر السكان المدنيون على الفور بفتح أبوابها له. على أن الترك المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون بضعة أيام، ثم لقوا مصرعهم عن آخرهم مع الأئمة المسلمين الذين وقفوا إلى جانبهم في القتال . ثم تحرك «جنكيز خان» من بخارى إلى **«سمرقند»** بينما انسحب «محمد خوارزم شاه» **إلى عاصمته في «اورجنده» قرب «خيوه»** على نهر «جيحون». وإذ لحق بـ «جنكيزخان» أبناؤه في سمرقند بعد أن استولوا على «أوترار»، بادرت الحامية التركية في سمرقند إلى التسليم على الفور، فأمر «جنكيز خان» بإبادتهم جميعاً . وحاولت فئة من سكان سمرقند المقاومة، غير أن المغول أبادوها أيضاً . وبعث «جنكيز خان» أبناءه لفتح «اورجنده» ولكن حامية المدينة دافعت بعناد ولم تتمكن قوات المغول من اقتحامها إلا بعد شهور عديدة .

وأثناء ذلك تمكن «محمد خوارزم شاه» من التسلل والخروج إلى خراسان ومنها إلى جزيرة صغيرة داخل بحر قزوين حيث

قضى نحبه هناك في كانون الأول – ديسمبر – سنة ١٢٢٠م .
وخلال ذلك كان «جلال الدين بن محمد خوارزم شاه» قد لحق بالجيش الخوارزمي في «فرغانة»، ثم تقهقر إلى أفغانستان فأنزل هزيمة ساحقة بالجيش المغولي الذي تم ارساله لقهره وتدمير جيشه وذلك في «بيروان» الواقعة إلى الشمال من جبال «هندوكوش».

أما «جنكيز خان» فعبر نهر «جيحون» ، واجتاز «بلخ» التي خضعت له فأبقى عليها ، ومنها توجه إلى «باميان» في قلب جبال «هندوكوش» وامتنع الحصن عليه، وفي أثناء الحصار لقي مصرعه حفيده «موتوجين» أحب الناس إليه، فلما سقطت المدينة عنوة ، لم يبق على قيد الحياة أحداً من سكانها .

وفي تلك الأثناء كان ابنه «تولوي» وصهره «تو قشتار» يقاتلان في أقصى الغرب فاستوليا على مدينة «مرو» التي لم يبق على قيد الحياة من سكانها الذكور سوى أربعمائة من الصناع المهرة . ثم سقطت «نيسابور» حيث لقي مصرعه «تو قشتار» وتعرضت لنفس المصير الذي تعرضت له «مرو» ، حيث أشرفت زوجة «تو قشتار» – أرملته – بنفسها على عملية الذبح والإبادة . وتقرر إرسال الصناع من المدينتين – نيسابور ومرو – إلى منغوليا .

وواصل «جنكيز خان» في خريف سنة ١٢٢١م = ٦١٨هـ. سيره مخترقاً أفغانستان لمهاجمة «جلال الدين» . فحاصره على ضفتي نهر السند. وتحطم الجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس

دارت في ٢٤ تشرين الثـاني – نوفمبر – سنة ١١٢١م، واستطاع «جلال الدين» النجاة بعد أن اجتاز نهر السند ، فالتجأ إلى ملك «دلهي» ، أما أطفاله فوقعوا في أيدي «جنكيز خان» الذي أمر بذبحهم .

أمضى «جنكيز خان» مدة سنة تقريباً في أفغانستان، وخلال هذه الفترة تمردت مدينة «هراة» التي استسلمت للغزاة دون مقاومة ثم حفزتها المظالم للتمرد – لا سيما بعد انتصار «جلال الدين» على المغول في «بيروان» وظل الجيش المغولي يحاصرها شهوراً عديدة، فلما سقطت في يد المغول في حزيران – يونيو – سنة ١٢٢٢م – دارت مذبحة رهيبة في كل سكانها الذين يبلغ عددهم مئات الألوف، واستمر القتال أسبوعاً. أما المدن التي دمرت والأراضي التي خلت من النبات، فتولى إدارتها رجال من المغول يدعمهم جند كاف من المغول لإخضاع السكان .

ثم عاد «جنكيز خان» إلى إقليم مـا وراء النهر ، الذي كان يقل خراباً عن الجهات الأخرى، فنصب على إقليم ما وراء النهر حاكماً خوارزمياً اسمه «مسعود يلواج» وجعل إلى جانبه مستشارين من المغول ليراقبوه. وأرسل «محمود يلواج» والد «مسعود» ليحكم «بكين» ، وكان هدفه من ذلك اجتذاب «مسعود» حتى يزيد في درجة ولائه له .

وعبر «جنكيز خان» نهر «سيحون» مرة أخرى في ربيع سنة ١٢٢٣م. وأخذ يسير في بطء حتى بلغ نهر «أرتيش» في صيف

سنة ١٢٢٤م، ثم وصل في الربيع التالي إلى موطنه على نهر «تولا». ولما عاد «جنكيزخان» بجيوشه إلى منغوليا، غادر «جلال الدين» –خوارزمشاه– مأواه في الهند، فالتفت حوله بقايا جيوش أبيه، ولقي «جلال الدين» ترحيبا كبيراً في فارس على أنه بطل المقاومة ضد المغول، ولم تحل سنة ١٢٢٥م حتى صارت له السيطرة على الهضبة الفارسية وأذربيجان. وفي سنة ١٢٢٦م = ٦٢٣هـ غدت له السيادة على بغداد.

وإذ أخذت مملكة «جلال الدين خوارزمشاه» تهدد الأيوبيين، فقد صارت عاملاً بالغ الأهمية في سياسة الفرنج بالشام، غير أن المسيحيين بأقصى الشمال لم يلقوا في «جلال الدين» ما يرجونه، إذ أنه أغار سنة ١٢٢٥م على بلاد «الكرج» وطور أعماله القتالية بعد الانتصار على جيش «الكرج» حتى استولى على «تفليس» عاصمة بلاد «الكرج»، وأضاف إلى مملكته جميع وادي نهر «كور». وأضحت مملكة «الكرج» قاصرة على أملاكها الواقعة على البحر الأسود، فلم تعد بالغة القيمة باعتبارها المعقل الواقع في الشمال الشرقي للعالم المسيحي، وباعتبارها دولة تستطيع أن تتحدى المسلمين في آسيا الصغرى.

توفي «جنكيز خان» في سنة ١٢٢٧م = ٦٢٤هـ. وترك إمبراطورية واسعة تمتد من كوريا حتى فارس – إيران – ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة. وتميزت فتوحاته بتجردها من الهدف – اللهم إلا هدف التدمير والنهب – كما أنه

لم يحفل أبداً بحياة البشر ولم يهتم بمصائبهم وآلامهم . فقد هلك في حروبه ملايين الأبرياء من سكان المدن. وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم تتعرض للدمار والخراب، فقامت إمبراطوريته على بؤس الناس وشقائهم وتعاستهم .

٢ً- المغول في القوقاز وفي أوروبا:

وقد لا تكون لغزوات المغول في القوقاز وأوروبا علاقة مباشرة فيما تعرض له المسلمون على أيدي المغول -التتار-. ولكن من الضروري إلقاء نظرة خاطفة على هذه الغزوات إذ أنها تبرز الأسلوب المدمر لهؤلاء البرابرة . بقدر ما تبرز أيضاً خصائص قوات المسلمين وصمودها في مواجهة القوة الطاغية وعدم استسلامها لمنطق القوة المدمرة أو استراتيجية الرعب . في الوقت الذي لم تتمكن فيه قوة - في عالم القرون الوسطى - من إبراز هذه الفضائل الحربية .

سبقت الإشارة إلى ذلك الجيش الذي أرسله «جنكيز خان» لمطاردة «محمد خوارزم شاه» في سنة ١٢٢١م بقيادة «سبوتاي» و«جيب». ولكن هذا الجيش لم يتمكن من تحقيق واجبه المباشر حيث تمكن «محمد خوارزم شاه» من النجاة واللجوء إلى الهند . فتابع القائدان «سبوتاي» و «جيب» زحفهما في اتجاه الغرب . وقاما في بداية سنة ١٢٢١م بالاستيلاء على مدينة «الري» -الواقعة قرب مدينة طهران حالياً- ثم سقطت في أيديهما مدينة «قم» ولم يفلت أحد من سكانها من القتل . وحل هذا المصير ذاته

بمدينتي «قزوين» و «زنجان» ، أما «همذان» فخضعت في الوقت المناسب فنجا أهلها من الإبادة بعد أن أدوا فدية باهظة .
واستطاع أمير «أذربيجان» أن يدرأ الهجوم على «تبريز» بما بذله من الأموال ، وتجاوزه المغول في شباط – فبراير – سنة ١٢٢١م لمهاجمة بلاد الكرج حيث عملوا على تدمير جيش الكرج بعد معركة حاسمة – عند «خناني» جنوبي «تفليس» – ولم ينهض هذا الجيش بعد ذلك أبداً. غير أن الغزاة البرابرة استداروا راجعين نحو الجنوب لتأديب «همذان» التي تمردت على طاعتهم ، وفي طريقهم دمروا «مراغة» في أذربيجان ونهبوها ، ثم دمروا همذان وأبادوا أهلها . وتوقفوا في شمال غربي فارس لقضاء ما بقي من السنة . ثم توجهوا من جديد إلى الشمال في أوائل سنة ١٢٢٢م ، وبعد أن استباحوا الأقاليم الشرقية من بلاد الكرج وأنزلوا الهزيمة بالقوات التي توجهت لوقف تقدمهم ، مضوا في سيرهم على امتداد شاطيء بحر قزوين، فاجتازوا دروب قزوين، واتجهوا نحو بلاد «القبجاق» الواقعة بين نهري «الفولغا» و «الدون» . فأسرع «القبجاق» إلى التحالف مع القبائل النازلة شمالي جبال القوقاز من «اللان» و «اللكز» . غير أنه لما عرض «سبوتاي» و «جيب» على القبيلتين نصيباً من الغنيمة لم تتدخلا حينما سحق المغول قوات القوقازيين .
وكان «اللان» و «اللكز» يأملان في أن يتحالفوا مع الروس حتى ينهضوا لمساعدتهم عندما ظهر أن المغول سيتحولون لقتالهم بعد فراغهم من القوقازيين .

وقام الروس بحشد جيش ضخم قـــاده أمراء «كييف» و «جاليش» و«شرنيخوف» و«سمولنسك» ولكن المغول نجحوا في تحطيم هذا الجيش على ضفتي نهر «كلكا» قرب بحر«آزوف». ولم يتابع القائدان المغوليان استثمار انتصارهما، بل توجها إلى بلاد القرم ، فدمرا ونهبا المحطة التي أقامها الجنويون في «صو لدايا» ، ثم انطلقا إلى الشرق ولم يتوقفا إلا ريثما يدمران جيشاً لـ «بلغار ـ كاما ـ وينهبان بلادهم . ثم لحقا بـ «جنكيز خان» مرة أخرى في أوائل سنة ١٢٢٣م عند نهر سيحون . وكانت هذه الغزوات ذات أهمية كبرى للمغول إذ أنها كانت بمثابة غزوات استطلاعية اكتسب قـــادة المغول من خلالها خبرات قتالية جيدة ومعرفة بجغرافية المناطق المختلفة علاوة على ما خلفته من رعب في وسط الشعوب التي تعرضت لهجماتهم .

وعاش العالم فترة من الهدوء في أعقاب موت «جنكيز خان» ريثما أعيد تنظيم أمور الإمبراطورية ، إلا أنه لم تمض أكثر من سنتين حتى بدأ التحرك الجديد لسحق ثورة «كين» في شمال الصين. وأخذ الإمبراطور الجديد «اوكيتاي» في التطلع إلى آفاق جديدة.

ظهر جيش مغولي ضخم في بلاد فارس بقيادة «شورماجان» مع بداية سنة ١٢٣١م = ٦٢٩هـ ، وأفـــاد هذا الجيش من مناخ الرعب الــذي تركته الهجمة السابقة فتقدم بدون مقاومة من خراسان إلى أذربيجان . وهرب «جلال الدين خوارزم شاه» ، ولم يلبث أن توفي في كردستان ، في وسط ظروف غامضة ،

وتمزق الجيش الخوارزمي تمزقاً مؤلماً ، والتحق بعواصم البلاد الإسلامية . وأضاف القائد المغولي «شورماجان» كل شمال فارس وأذربيجان إلى الأمبراطورية المغولية ، وظل يحكم هذا الإقليم من سنة ١٢٣١م حتى سنة ١٢٤١م من معسكره في «موقان» قرب بحر قزوين . ثم أغار «شورماجان» على بلاد الكرج واستولى على الشطر الشرقي منها . وفي سنة ١٢٤٣م عقدت ملكة الكرج إتفاقاً مع قائد المغول اعترفت فيه بتبعيتها على أن يكون لابنها من بعدها كل مملكة الكرج يحكمها تحت السيادة المغولية .

احتشد جيش مغولي ضخم في ربيع سنة ١٢٣٦م شمالي بحر «آدال» بقيادة «باطو بن جاجي» الذي شملت أملاكه تلك السهوب. وصحب «باطو» أخوته وأربعة من أبناء أعمامه هم «كيوك» و «قاذن» ولدا الخان الأكبر «اوكيتاي» و «بايدار بن جغتاي» و «مونك بن تولوي» ، أما القائد الشيخ «سبوتاي» فكان رئيساً لأركان حرب الجيش .

ولما فرغ الجيش المغولي من قمع القبائل التركية النازلة على نهر الفولغا، زحف إلى البلاد الروسية في خريف سنة ١٢٣٧م فاستولى عنوة على «ريضان» في ٢١ كانون الأول – ديسمبر – ودارت مذبحة هلك فيها أميرها وجميع سكان المدينة . ثم سقطت «كولومونا» بعد بضعة أيام. وفي أوائل السنة الجديدة ١٢٣٨م هاجم المغول مدينة «فلاديمير» الكبيرة فلم تصمد للقتال أكثر من ستة أيام ،

واقترن سقوطها في ٨ شباط – فبراير – بمذبحة جماعية جديدة . وتعرضت «سوزدال» للنهب في الفترة ذاتها. وتبع ذلك الاستيلاء على المدن الأخرى في روسيا الوسطى وتدميرها وأهمها «موسكو» و « يوريف » و « جاليش » و « بريسلاف » و « روستوف» و « ياروسلاف » .

وحدث في ٤ آذار – مارس – سنة ١٢٣٨م أن حلت الهزيمة بالأمير الكبير «يوري» سيد فلاديمير ، ولقي مصرعه على ضفاف نهر «سيتي» . ولم تلبث «تغير» و «تورزوك» أن سقطتا في أيدي المغول بعد المعركة . وتقدم الغزاة فاجتازوا تلال «فالداي» قاصدين «نوفجورود». ولكن أمطار الربيع حولت النطاق المحيط بالمدينة إلى مستنقعات تعيق عمل الفرسان . فانسحب «باطو» ، وأمضى ما تبقى من السنة في سَحق آخر ما صادفه من المقاومة من قبل القبجاق، بينما قهر ابن عمه «مونك» اللان والقبائل النازلة بشمال القوقاز، ثم قام بغارة استطلاعية حتى وصل «كييف» .

عاد «باطو» ليقود جيش المغول الرئيسي إلى «أوكرانيا» في خريف سنة ١٢٤٠م =٦٣٨هـ. فنهب «شرنيجوف» و«بريسلافل» واستولى عنوة على «كييف» في ٦ كانون الأول – ديسمبر – سنة ١٢٤٠م بعد أن استبسلت في الدفاع . وقام المغول بتدمير قسم كبير من كنوزها العظيمة ، ولقي أكثر سكانها مصرعهم . على أنه جرى الابقاء على حياة «ديمتري» قائد الحامية لشجاعته التي استحوزت على إعجاب «باطو». ثم تحركت قوة من الجيش المغولي بقيادة «بايدر بن جفتاي» ومضت نحو الشمال (إلى بولندا) فنهب

«ساندومير» و«كراكوف». فاستنجد الملك البولندي بالفرسان التيوتون (الألمان) النازلين على ساحل بحر البلطيق. غير أن جيوشهم المتحدة بقيادة «هنري» دوق «سيليزيا» تعرضت في ٩ نيسان – إبريل– لهزيمة ساحقة بعد معركة عنيفة دارت رحاها في «فاهلشتات» قرب «لبيجنتز». غير أن «بايدر» لم يجرؤ على المضي نحو الغرب إلى أبعد من ذلك، فاجتاح «سيليزيا» ودمرها ثم توجه نحو الجنوب –إلى بلاد المجر– بعد أن اجتاز «مورافيا».

وفي تلك الأثناء مضى «باطو» و «سبوتاي» إلى «غاليسيا» بعد أن ساقا أمامها جموعاً من الأسرى الذين استبد بهم الخوف وانتموا إلى كل الأقوام. ثم اجتازا جبال «الكربات» إلى سهل المجر. وقاد «بيلا» ملك المجر جيشه للقائها، غير أنه حلت به هزيمة ساحقة في ١١ نيسان – إبريل – عند جسر «موهي» على نهر «سايو». فتدفق المغول على بلاد المجر، ونفذوا إلى «كرواتيا»، وواصلوا زحفهم حتى بلغوا سواحل البحر الأدرياتي. وأقام «باطو» بضعة شهور في بلاد المجر، ثم جاءه الرسل يحملون إليه النبأ بأن الخان الكبير «اوكيتاي» مات في «قراقورم» في ١١ كانون الأول –ديسمبر– سنة ١٢٤١م. ولم يعد باستطاعة «باطو» متابعة أعماله قبل أن يستقر الحكم من جديد في بلاد المغول.

لقد عمل المغول على تدمير قسم كبير من أوروبا، وكان من المفروض مجابهة هذا الخطر باجراء مشترك. غير أن أمراء أوروبا وملوكها، اعتبروا هذا الاجتياح بمثابة ظاهرة مؤقتة

ليس لهـا تأثيرها على الاتجاه العام . فقد تزوج القسم الأكبر من قادة المغول ، من فتيات مسيحيات، أصبح لهن ثقلهن في بلاط الخان الكبير وفي الأوساط القيادية . كما أن الكنائس التي كانت تتابع تحركات المغول لا زالت تأمل في استخدام القوة الجديدة والتحالف معها ضد المسلمين . وكان يتم تغليف هـــذه الآمال بالأساطير، مثل أسطورة «بريستر يوحنا»، التي قضت على أن الخلاص سوف يجيء من الشرق ، والتي تمسك بها عدد كبير من رجال الدين المسيحي والقادة والأمراء في الغرب. وتحقيقاً لهذه الرؤيا كان لا بد للكنيسة من إثارة العواطف للقيام بالدعوة لحملة صليبية جديدة .

٣ً- هولاكو يقود الحرب:

أصبح «كيوك بن اوكيتاي» هو الخان الأكبر المغول في الفترة بين سنة ١٢٤١م و ١٢٤٨م ومضت فترة من الاضطراب إلى أن انعقد المجلس الوطني «القوريلتاي» فانتخب في الأول من تموز - يوليو- سنة ١٢٥١م «منكو» خاناً كبيراً، وأصبح باستطاعة أخوة «منكو» وهم «قبيلاي» و«هولاكو» و«أريق بوقا» تحقيق ما تم التفكير به طويلاً وهو القضاء على المسلمين. وكان «هولاكو» هو قائد القوات في فارس فأخذ على عاتقه قيادة الحرب . وقـد عرف عنه حبه للشر وتجرده من كل نزعة إنسانية . كما كان يعاني من نوبات الصرع ، وحدة المزاج ، وكان لزوجته **«طقز خاتون»** أقوى نفوذ في البلاط، وهي من أميرات قبيلة «الكرايت» حفيدة

لـ «طغرل خان» ، فتعتبر ابنة عم والدة «هولاكو» . وكانت شديدة التعلق بالنسطورية ، فلم تخف كراهيتها للإسلام وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم .

كان أول هدف لـ «هولاكو» هو تدمير الإسماعيلية (الحشاشين) والاستيلاء على مقرهم في قلعة «آلموت» ، إذ كان من المحال -بحسب ما كان يراه «هولاكو»- إقامة حكومة منظمة ما لم يتم القضاء على الإسماعيليين لا سيما بعد أن عمل هؤلاء طويلاً على إلحاق الأذى بالمغول عندما اغتالوا «جغتاي» ثاني أبناء «جنكيز خان».

وكانت حاضرة الخلافة العباسية (بغداد) هي الهدف الثاني لـ «هولاكو» ، إذ يصبح بامكان الجيش المغولي بعدها التوغل في الشام .

وأمضى «هولاكو» فترة خمسة أعوام تقريباً في الإعداد لهذه الحملة الضخمة ، فأعد كل شيء بدقة وعناية ، وعمل على إصلاح الطرق التي تجتاز «تركستان» و«فارس» ، وتمت إقامة الجسور على الأنهار. وجهزت العربات اللازمة لجلب أدوات الحصار من الصين. وتولى القائد **«كتبغا النسطوري»** أقرب القادة إلى «هولاكو» وأعظمهم موطناً لثقته قيادة الجيش المكلف بتمهيد الطريق للغزو. وكان «كتبغا» ينتمي إلى عنصر «النايمان» والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق .

ومضى «كتبغا» لتنفيذ مهمته التي استغرقت ثلاث سنوات ، فأعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة بالهضبة الإيرانية (الفارسية) واستولى على بعض معاقل الإسماعيلية التي تتحكم بمحاور الطرق.

وعندمـا انتهت الاستعدادات اصطحب هولاكو «طقز خاتون» وزوجتين أُخريين وولديه الكبيرين . وكان يمثل «بيت جغتاي» حفيده «نيقودار» وأرسل «باطو» من القبيلة الذهبية ثلاثـة من أبناء أخيه الذين ارتحلوا على امتداد الساحل الغربي لبحر قزوين ولحقوا بالجيش المغولي في فارس . وقدمت كل قبيلة من قبائل الحلف خُمس رجالها المقاتلين ، واشترك في الحمـلة نحو ألف من الرماة الصينيين الذين برعوا في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار .

وعندما بدأ هذا الجيش تحركه في كانون الثاني – يناير – سنة ١٢٥٦م واجتاز نهر جيحون ، ظهر أن المروج والسهول قد أصبحت خالية من قطعان الماشية وذلك من أجل توفير الأعشاب الضرورية لخيول المغول .

كان زعيم الإسماعيليين «ركن الدين خورشاه» يعرف ما يتهدده به المغول. فحاول أن يدرأ الخطر باللجوء إلى الطرائق الدبلوماسية التي أتقن قادة الإسماعيليين استخدامها . ولكن جهوده لصرف المغول عن أهدافهم لم تحقق أي نجاح .

وتحرك «هولاكو» بقوة – ولكن بصورة بطيئة – فاجتاز «ديموند» و«عباس آباد» وانحدر إلى وديان الإسماعيلية (الحشاشين) . ولما ظهر الجيش الضخم أمام «قلعة آلموت» وأخذ في تضييق الحصار على القلعة ، لم يسع «ركن الدين» إلا التسليم ، فقدم بنفسه في كانون الأول – ديسمبر – إلى خيمة «هولاكو» ، وأعلن خضوعه وإذعانه . غير أن حاكم القلعة رفض إطاعة ما أصدره إليه من

أوامر بتسليم القلعة فسقطت عنوة بعد بضعة أيام . وتلقى «ركن الدين» وعداً من «هولاكو» بالابقاء على حياته، غير أنه طلب إليه التوجه إلى «قراقورم»، لعله يحصل من الخان الكبير «منكو» على شروط تفضل تلك التي بذلها «هولاكو» . غير أنه لما وصل إلى «قراقورم»، رفض «منكو» أن يلقاه، وقال: «إنه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة » على أن اثنين من حصون الإسماعيلية وهما «جردوه» و«لمبوذر» امتنعا على المغول. فجرى إخطار «ركن الدين» بالعودة إلى بلاده ليحملها على التسليم، غير أنه لقي مصرعه مع أصحابه أثناء مسيره . وصدرت الأوامر في الوقت ذاته إلى «هولاكو» باستئصال شأفة الإسماعيلية (الحشيشية) وتقرر إرسال عدد من أقارب زعيم الإسماعيلية إلى ابنة «جغتاي» (سالقان خاتون) حتى تنتقم منهم لمصرع أبيها . بينما تم استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم، ودارت فيهم مذبحة هلك فيها الألوف منهم. ولم تنته سنة ١٢٥٧م = ٦٥٥هـ حتى لم يبق إلا عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس . أما الإسماعيلية في الشام فإنهم لم يكونوا في متناول «منكو» ومع ذلك ترقبوا ما ينتظرهم من مصير .

وكان الإسماعيلية يحتفظون في «آلموت» بمكتبة ضخمة زخرت بكتب في علوم الفلسفة والتنجيم . فأرسل «هولاكو» حاجبه المسلم «عطا الملك الجويني» ليفحصها . فأخرج منها ما صادفه من المصاحف وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية، وأمر بحرق جميع كتب الملحدين. إلا أن حريقاً كبيراً نشب أثناء ذلك

فالتهم جميع الكتب والمؤلفات الخاصة بالمذهب السنّي .

أصبح باستطاعة «هولاكو» التوجه إلى بغداد بعد أن انتهى من تحقيق هدفه الأول. فتحرك بجيشه لمهاجمة مقر الخلافة ببغداد. وكان الخليفة وقتذاك «المستعصم بالله» وهو الثالث والثلاثين من الخلفاء العباسيين . وقد حاول «المستعصم» – ابن المستنصر – أن يعيد للخلافة سلطتها ومجدها . بعد أن أصبح للخلافة سلطتها التامة بزوال هيمنة الخوارزمية . كما أن التنافس بين الأمراء في القاهرة ودمشق هيأ للخليفة الفرصة لممارسة دوره في توحيد المسلمين.

وأحاط «المستعصم» نفسه بظواهر العظمة التي اكتسبتها الخلافة عبر قرون طويلة. إلا أن الضعف الكامن بقي مختفياً خلف ظواهر القوة هذه نتيجة لما كان متوافر من العداء بين وزيره الشيعي «مؤيد الدين بن العلقمي» وكاتبه السني « ايبك » الذي سانده ولي العهد .

اشتهرت بغداد بقوة تحصيناتها ومناعة استحكاماتها ، وكان باستطاعة الخليفة «المستعصم» حشد جيش ضخم يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائة وعشرين ألف فارس . ولكن الوزير «مؤيد الدين العلقمي» قام بدور مشبوه في إثارة شكوك الخليفة بقواته ونصحه بتخفيض قواته لتوفير المال الذي يمكن تقديمه لـ «هولاكو» حتى لا يهاجم بغداد . وظهرت خيانة الوزير «العلقمي» عندما رد «هولاكو» على الخليفة طالباً منه الاعتراف بالسيادة على الخلافة ذاتها ، ولم يلق اقتراح «هولاكو» إلا الرفض الشديد من الخليفة

الذي طلب إلى كاتبه «ايبك» الاستعداد للحرب .

وإذ ظهر أن الحرب باتت وشيكة الوقوع ، جمع «هولاكو» قادته وتحدث إليهم في شيء من القلق والاضطراب، لا سيا وأن منجموه لم يتفقوا على أن النصر سيكون حليفاً للحملة . ولما كان يخشى تخلي أتباعه من المسلمين عنه، علاوة على احتمال تدخل أمراء دمشق ومصر ، فقد بادر إلى اتخاذ التدابير القوية لمراقبة تصرفات المسلمين في جيشه. وفي تلك الأثناء ازداد جيشه قوة بوصول فرقة من القبيلة الذهبية ، وبقدوم الجيش الذي ظل «بيجو» يحتفظ به على أطراف الأناضول في السنوات العشرة الأخيرة ، فضلاً عن فرقة من فرسان الكرج الذين كانوا في شوق لمهاجمة عاصمة المسلمين. وتوافر لـ «هولاكو» بذلك جيش لم يتمكن المغول من حشده من قبل.

تحرك الجيش المغولي من قاعدته في «همذان» في نهاية سنة ١٢٥٧م = ٦٥٥هـ وعبر القائد «بيجو» بجيشه نهر «دجلة» عند «الموصل» وسار إزاء الشاطىء الغربي للنهر. أما «كتبغا» والجناح الأيسر للجيش فدخل سهل العراق الواقع شرقي العاصمة مباشرة. بينما زحف «هولاكو» بقلب الجيش مخترقاً «كرمانشاه».

ولم يكد الجيش الرئيسي للخليفة ينهض بقيادة «ايبك» ليلتقي بـ «هولاكو» حتى سمع باقتراب جيش «بيجو» القادم من جهة الشمالي الغربي. فعبر «ايبك» نهر «دجلة» من جديد. وفي ١١ كانون الثاني–يناير– سنة ١٢٥٨م = ٦٥٦هـ. باغت المغول قرب الأنبار، على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من بغداد، فتظاهر «بيجو» بالتراجع،

وبذا جر قوات المسلمين إلى منطقة منخفضة تغمرها المستنقعات، وأرسل المهندسين ليقطعوا ما يقع خلفهم على نهر الفرات من السدود . وتجدد القتال في اليوم التالي، وارتد جيش «ايبك» إلى الحقول المغمورة بالمياه . وانسحب «ايبك» وحرسه بطريق النهر إلى بغداد ، أما معظم جيشه فقد أبيد في ميدان المعركة ، وتمزق مَن بقي منهم على قيد الحياة ، وفروا إلى البادية .

ولم يلبث «هولاكو» أن ظهر أمام الأسوار الشرقية لمدينة بغداد يوم ١٨ كانون الثاني -يناير- سنة ١٢٥٨م = ٦٥٦هـ. وفي ٢٢ كانون الثاني - يناير- تعرضت المدينة للهجوم من كل الجهات بعد إقامة جسور من القوارب على نهر دجلة، بأعلى المدينة وبأسفلها. والمعروف أن بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة، على أن المدينة الغربية التي شملت قصر الخلفاء الأوائل ، أضحت أقل أهمية من المدينة الشرقية التي تركزت بها مباني الحكومة ، وركز المغول أشد هجماتهم على الأسوار الشرقية ، وأخذ «المستعصم» يفقد الأمل . وفي نهاية شهر كانون الثاني-يناير- بعث بوزيره الذي كان يدافع عن سياسة المصالحة مع المغول ومهادنتهم -**الوزير الشيعي «مؤيد الدين بن العلقمي»- وأرسل معه البطريرك النسطوري الذي كان الخليفة يأمل في أن يتوسط عند «طقز خاتون» لمحاولة التفاوض مع «هولاكو» . غير أنه تقرر إعادة الرسولين بدون أن يقابلا «هولاكو» .**

وأخذ السور الشرقي لبغداد بالانهيار بعد أن تعرض للقذف الشديد في الأسبوع الأول من شهر شباط -فبراير- سنة ١٢٥٨م.

وفي ١٠ شباط – فبراير– وبينما كان جند المغول يتدفقون إلى داخل المدينة ظهر الخليفة وسلم نفسه لـ «هولاكو» مع كبار قادة الجيش وكبار موظفي الدولة. وبعد أن صدرت إليهم الأوامر بإلقاء سلاحهم، تم الاجهاز عليهم ولم يجر الابقاء إلا على حياة الخليفة حتى دخل «هولاكو» المدينة والقصر في ١٥ شباط–فبراير– سنة ١٢٥٨م. **ولقي الخليفة مصرعه، بعد أن كشف لـ «هولاكو» عن الأماكن التي اختبأت فيها ثروته وكنوزه.** وفي تلك الأثناء ظلت المذابح مستمرة في جميع أنحاء المدينة بغداد. وتعرض للقتل على السواء أولئك الذين بادروا إلى التسليم وأولئك الذين مضوا في القتال، وهلك النساء والأطفال مع رجالهم. وعثر أحد المغول في شارع جانبي على أربعين طفلاً حديثي الولادة وقد ماتت أمهاتهم فأجهز عليهم. أما عساكر الكرج الذين كانوا أول مَن اقتحم الأسوار، فاشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التدمير. فهلك في أربعين يوماً نحو ثمانين ألفاً من سكان بغداد. ولم يبق على قيد الحياة إلا فئة قليلة واتاها الحظ فلم يكتشف المغول الملاجيء والحواصل التي اختبؤوا فيها. فضلاً عن عدد قليل من الغلمان والفتيات ممن تم انتقاؤهم وأخذهم أرقاء. وكذا الجالية المسيحية التي لجأت إلى الكنائس فلم يتعرض لها أحد بسوء وفقاً لأوامر «طقز خاتون».

وتفجر الحقد ضد المسلمين حتى شمل كل ما يتصل بهم، حتى مكتباتهم الزاخرة بالعلم والمعرفة أصبحت هدفاً للتدمير، وألقي بها في النهر الذي أصبح ماؤه أسود لأيام كثيرة.

ولما لم يبق في بغداد مَن يعمل على مواراة القتلى ودفنهم ، فقد بدأت الجثث بالتعفن . وفي نهاية شهر آذار –مارس– ظهر احتمال انتشار الأوبئة، وأصبح من الصعب احتمال مناخ الموت في المدينة المدمرة . فأمر «هولاكو» قواته بالانسحاب من بغداد . وحزن كثير منهم لمغادرة المدينة لاعتقادهم أنه لا زال بها من التحف القيمة ما يمكن العثور عليه. غير أنه صار بحوزة «هولاكو» كل ما تجمع في خزائن الخلفاء العباسيين من ثروات وكنوز طوال خمسة قرون .

وبعد أن أرسل «هولاكو» شطراً كبيراً من الغنائم إلى أخيه الخان الأكبر «منكو» انسحب راجعاً إلى «همذان» في تمهل ، ومنها توجه إلى «أذربيجان» حيث شيد قلعة منيعة في «شها» على شاطيء بحيرة «أرمية» ، وجعل منها مستودعاً لكل ما حازه من الذهب والمعادن النفيسة والجواهر. وجعل على بغداد والياً هو الوزير السابق «مؤيد الدين بن العلقمي» الذي خضع لإشراف دقيق من قِبَل الموظفين المغول . أما البطريرك النسطوري «ماكيكا» فغمره «هولاكو» بالهدايا، وجعل له أحد قصور الخليفة مقراً وكنيسة . وأخذت المدينة «بغداد» تستعيد رويداً رويداً نظافتها ، وتعود إلى سابق عهدها من النظام والترتيب ، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة ، سوى مدينة إقليمية لا تتجاوز عشر حجمها السابق .

كان لذيوع أنباء تدمير بغداد أثر عميق في جميع أنحاء آسيا ، وابتهج المسيحيون في كل مكان ، إذ كتبوا في نشوة النصر عن

سقوط «بابل» الثانية . وهللوا لـ «هولاكو» و «طقز خاتون» واعتبروهما «قسطنطين» و «هيلينا» وأنهما ليسا إلا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح . أما المسلمون فاعتبروا تخريب بغداد صدمة مريعة وتحدياً مخيفاً . فعلى الرغم من أن الخلافة العباسية ظلت منذ زمن طويل تفقد قدراً كبيراً من سلطتها المادية ، إلا أن مكانتها المعنوية لا زالت قوية . كما أن القضاء على الأسرة العباسية وتدمير عاصمتهم قضى على وحدة العالم الإسلامي .

أصبح باستطاعة «هولاكو» تطوير أعماله القتالية للتوغل في بلاد الشام، إلا أن هناك عقبة كانت تعترض سبيله، إذ كانت إمارة الأمير الأيوبي «الكامل محمد» في «ميافارقين» تسيطر على إقليم الجزيرة سيطرة قوية . وكان الأمير «محمد» عنيداً ، أظهر رفضه القاطع منذ البداية لقبول السيادة المغولية . وعندما أرسل إليه «هولاكو» رسولاً من قبله هو «قسيس يعقوبي» بهدف حمله على قبول سيادة المغول ، كان رد الأمير «الكامل محمد» هو صلب «قسيس» وتجنب الرد على «هولاكو» . إلا أن أمراء الشام وحكامها لم يكونوا جميعاً بمثل قدرة «الكامل محمد» أو لديهم ما توافر له من تصميم وعناد في مجابهة العدوان، فقد توجه مبعوثون من قبل إمارات عديدة إلى مقر «هولاكو» قبل مغادرة معسكره القائم بالقرب من «مراغة» وكان بين هؤلاء «بدر الدين لؤلؤ» أتابك الموصل السابق الذي أسرع للمثول بين يدي «هولاكو» ليعتذر عما بدر منه من أفعال سيئة ، ولم يلبث أن وصل بعده

سلطانا السلاجقة ولدا « كيخسرو» وهما « كيكاوس الثاني» و «قلجأرسلانالرابع» وحاول أولهما وهو «كيكاوس» استرضاء «هولاكو»والإمعان فيالتملق إليهحتى يتجاوز عنقصة مقاومته لـ «بيجو» في سنة ١٢٥٦م، وكان أسلوبه في التزلف منفراً مما صدمالمغول ذاتهم. ثمحدث آخر الأمر أن أرسل«الناصريوسف» أمير حلب ودمشق ابنه «العزيز» ليؤدي إلى «هولاكو» واجب الخضوع والطاعة .

وأفـاد «هولاكو» من هذه المواقف المتخاذلة والمهينة بقدر مـــا أفاد من دعم حلفائه **«الكرج والأرمن»** أولئك أفادوه بسلبيتهم وهؤلاء بدعمهم ، وبذلك أمكن له المضي دون تردد نحو أهدافه التالية . فانطلق في بداية سنة ١٢٦٠م = ٦٥٨هـ فحاصر «ميافارقين» ولم تمض فترة طويلة حتى تم القضـاء على مقاومتها الضارية . **فدارت مذبحة في المسلمين بينما جرى الابقاء على حياة المسيحيين ، وتعرض «الكامل» للتعذيب والتنكيل بأن أرغموه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات .**

وبزوالهذه الإمارة الأيوبية زالت عقبة أساسية صلبة كانت تتصدى لهجوم المغول . وأصبحت بلاد الشام أمام خطر المغول مباشرة بدون وجود أي درع يضمن لها الوقاية .

٤ً– من بغداد إلى دمشق :

نظم «هولاكو» جيشه للتوغل في سوريا ، فعيَّن «كتبغا» لقيادة مقدمته ، بينما تولى«بيجو» قيادة الميمنة ، وتولى «سنجق»

امبراطورية المغول

قيادة الميسرة وتولى «هولاكو» ذاته قيادة قلب الجيش ثم انطلق في أيلول –سبتمبر– سنة ١٢٥٩م = ٦٥٨هـ. فتجاوز في تقدمه «نصيبين» و «حران» و «الرها» حتى بلغ«البيرة» حيث عبر نهر الفرات . وحاولت «سروج» مقاومة تقدمه فتعرضت للنهب والتدمير .

وفي أوائل السنة الجديدة (١٢٦٠م = ٦٥٩ هـ) وبينما كانت قوة من المغول تتعاون مع الكرج والأرمن بالقضاء على«ميافارقين» أطبق جيش المغول على مدينة «حلب» من كل الجهات ، ولكن حامية المدينة رفضت التسليم وصممت على المقاومة ، ولما كان السلطان «الناصر» في دمشق، فإنه كان يأمل بأن يكون وجود ابنه في معسكر «هولاكو» كافياً لدرء الخطر عن بلاده. وعندما تبين له أنه كان مخطئاً في تقديره للأمور، حاول اللجوء إلى طريقة جديدة أكثر مهانة وأكثر مذلة من سابقتها ، إذ عرض على «هولاكو» الاعتراف بسيادة المماليك على مصر إذا وعدوه بالمساعدة. وفي الوقت ذاته حشد جيشه خارج دمشق. ودعا ابني عمه أميري «حماه» و «الكرك» لمساعدته . غير أنه بينما كان ينتظر في ظاهر دمشق، أخذ بعض قادته الترك في التآمر عليه، واكتشف خططهم في الوقت المناسب ، وعرف هؤلاء القادة اكتشاف أمرهم فهربوا إلى مصر مصطحبين معهم أحد أخوته ، وأدى تسللهم وفرارهم إلى إضعاف جيشه بحيث أنه فقد كل أمل في التحرك إلى حلب لدعمها ومساعدة حاميتها .

قرر «هولاكو» اقتحام حلب في ١٨ كانون الثاني - يناير - سنة ١٢٦٠م=٦٥٩هـ ، وأظهر «توران شاه» عم «الناصر يوسف» شجاعة كبيرة وكفاءة عالية في إدارة المعركة . غير أن الأسوار لم تلبث أن تداعت للسقوط بعد أن تعرضت للقذف مدة ستة أيام متوالية ، وتدفق المغول إلى داخل المدينة . وحدث بحلب مثل ما حدث في كل مكان إذ دارت المذابح في المسلمين في حين لم يتعرض المسيحيون لسوء . وظلت قلعة حلب تقاوم بقيادة «توران شاه» أربعة أسابيع أخرى. فلما سقطت آخر الأمر أظهر «هولاكو» من الفروسية ما لم يكن متوقعاً منه ، إذ أبقى على حياة «توران شاه» لكبر سنه وشجاعته ، ولم تتعرض حاشيته للقتل أو الابادة . ووقع في قبضة «هولاكو» مقادير كبيرة من الثروة . ثم عهد «هولاكو» بحكومة حلب إلى «الأشرف» - أمير حمص السابق - الذي كان قد تقدم منذ بضعة شهور إلى معسكر «هولاكو» وجعل من نفسه تابعاً له. وأمده «هولاكو» بالمستشارين من المغول وبحامية مغولية لضبط تصرفاته .

تابع «هولاكو» تقدمه من حلب إلى أنطاكية ، إلا أن حامية (حصن حارم) رفضت الاستسلام ما لم يضمن أحد أمراء المسلمين الوعد الذي قطعه «هولاكو» بعدم إبادة الحامية . وقام المغول بحصار الحامية حتى تم إخضاعها. وعندما اقتحم المغول الحصن، قاموا بذبح كل المسلمين على نحو ما فعلوه في كل موقع اقتحموه .

وقدم «هولاكو» إلى طرف أنطاكية وزار معسكره كلٌّ من

ملك أرمينية «هيثوم» وصهره أمير أنطاكية «بوهمند» لأداء الولاء وإعلان خضوعهما من جديد. ونظراً لما قامت به القوات الأرمينية من دعم لقوات المغول، فقد كافأ «هولاكو» ملك أرمينية بأن منحه قدراً من الغنائم التي نهبها من حلب، وطلب إلى الأمراء السلاجقة المسلمين أن يردوا له ما سبق أن استولى عليه أبوهم من الممتلكات في قيليقية. وظفر «بوهمند» أيضاً بمكافأة جزاء له على انقياده لـ «هولاكو»، فتقرر أن يعود إلى إمارة انطاكية بعض المدن والحصون التي ظلت بأيدي المسلمين منذ زمن «صلاح الدين»، ومنها اللاذقية، مقابل أن يوافق «بوهمند» على أن يحل البطريرك اليوناني «يونيميوس» في أنطاكية مكان البطريرك اللاتيني. ومع أن ملك أرمينيا «هيثوم» لم يكن شديد الميل إلى اليونانيين، فإنه خضع لرغبة «هولاكو» الذي أدرك أهمية وجود النفوذ اليوناني في أنطاكية، علاوة على رغبة «هولاكو» بدعم العلاقات الودية التي كانت قائمة بينه وبين الإمبراطور اليوناني في «نيقية»، مما دفعه إلى اتخاذ إجراء يزيد من قوة الروابط بينهما.

اعتبر اللاتين في أنطاكية أن انقياد «بوهمند» لرغبات «هولاكو» هو أمر مشين نظراً لما يتضمنه من إذلال للكنيسة اللاتينية بأنطاكية. وكان للبنادقة -اللاتين- نفوذهم القوي بمملكة بيت المقدس، كما كان لهم علاقاتهم التجارية الجيدة مع مصر. وارتبطت مصلحتهم بالتجارة القادمة من الشرق الأقصى والتي تجتاز الطريق الجنوبي عبر الخليج العربي أو البحر الأحمر.

وراقب البنادقة باهتمام كبير طرق القوافل المغولية التي تجتاز آسيا الوسطى إلى البحر الأسود حيث أخـذ الجنويون يوطدون سلطتهم بعد تحالفهم مع اليونانيين . وتطلعت **(حكومة عكا)** -وهي الممثلة لحكومة بيت المقدس- تلتمس حماية أحد العلمانيين.

وكان معروفاً أن لـ«شارل» كونت آنجو -شقيق ملك فرنسا- أطماعه في البحر المتوسط ، وأخذ يدبر المؤامرات فعلاً للوصول إلى عرش صقلية ، فتقرر إنفاذ رسالة مثيرة له في أيار - مايو- ١٢٦٠م تتناول وصف أخطار الغزو المغولي وتلتمس منه التدخل.

وحدث في الوقت الذي أرسلت فيه مملكة بيت المقدس بعكا كتاباً إلى «شارل» كونت أنجو أن أضحى المغول سادة لدمشق. ولم يحاول السلطان «الناصر يوسف» أن يدافع عن عاصمته دمشق ذلك أنـــه عندما بلغه سقوط حلب واقتراب الجيش المغولي من مدينته عمد إلى الفرار إلى مصر ليلتجيء إلى المماليك ، ثم غيَّر رأيه. فألقى المغول القبض عليه حينما ركب متوجهاً إلى الشمال مرة أخرى.

وكانت «حماة» قـد أرسلت في شهر شباط - فبراير- سنة ١٢٦٠م = ٦٥٩هـ وفداً إلى «هولاكو» يحمل إليه مفاتيح المدينة. ولم تمض إلا بضعة أيام حتى احتذى بهم أعيـان دمشق ، فدخل «كتبغا» دمشق في أول آذار - مارس- على رأس جيش مغولي وصحبه ملك أرمينيا وأمير أنطاكية ، **وشهد سكان عاصمة بني أمية لأول مرة منذ ستة قرون ثلاثة أمراء مسيحيين يركبون معاً بموكبهم الحافل وهم يخطرون في شوارع المدينة . على أن قلعة**

دمشق ظلت تقاوم الغزاة بضعة أسابيع حتى اضطرت إلى التسليم في يوم ٦ نيسان – إبريل – سنة ١٢٦٠م = ٦٥٩هـ .

لقد ظن أعداء الإسلام في تلك الفترة أن الإسلام قد انتهى أو كاد يشرف على الانتهاء بسقوط المدن الثلاثة الكبيرة : بغداد ، وحلب ، ودمشق ، وهي القواعد الأساسية للمسلمين في بلاد الشام بعد أن تم إزالة المدن الإسلامية في كل أنحاء فارس – إيران – . ولم يكن للفتح المغولي في أنظار الصليبيين وأنصارهم أكثر من معنى واحد هو القضاء على المسلمين . وأدى ذلك إلى انتعاش المسيحيين المحليين ، فالقائد المغولي «كتبغا» هو مسيحي لم يحاول إخفاء عواطفه ، وأصبح المسلمون في بلاد الشام ولأول مرة منذ الفتح الإسلامي قبل خمسة قرون وهم أقلية مغلوبة على أمرها . فباتوا وهم يتحرقون شوقاً للثأر .

أرسل «كتبغا» أثناء فصل الربيع من السنة ذاتها (سنة ١٢٦٠م = ٦٥٩ هـ) قوات من المغول فاحتلت نابلس وغزة في فلسطين. غير أنها لم تصل إلى بيت المقدس. وبذلك أحاط المغول بالإمارات الصليبية . ولم يكن في نية «كتبغا» وقيادته المغولية مهاجمة تلك الإمارات والممالك .

وحاول قادة الفرنج – الصليبيون – تجنب إثارة المغول. إلا أنه كان من المحال عليهم إلزام جميع القادة بذلك . وكان «جوليان» سيد صيدا والشقيف أشد الصليبيين تطرفاً . وظن أن الصراع بين المسلمين والمغول يضمن له فرصة جيدة للإغارة

على سهل البقاع الخصيب. غير أن «كتبغا» لم يكن ليسمح للفرنج بإثارة الاضطراب في التنظيم الذي أقامه حديثاً لتشديد قبضته على البلاد. فأرسل قوة من جنده بقيادة ابن أخته لإنزال العقاب بقوات «جوليان». فما كان من هذا إلا أن طلب الدعم من جيرانه الفرنج، فكمنوا لابن أخت «كتبغا» وقتلوه.

وغضب «كتبغا» لما حدث فأرسل جيشاً كبيراً وصل إلى مدينة صيدا وخربها، ولم ينقذ قلعة البحر إلا السفن الجنوية التي قدمت من صور، وأظهر ملك أرمينيا «هيثوم» غضبه عندما بلغه ما قام به صهره والذي لم يكن له سيطرة عليه. وألقى اللوم على الداوية الذين أفادوا من خسائر جوليان فانتزعوا منه حق رهن صيدا والشقيف «واللتين كان جوليان قد رهنها عند فرسان الداوية لقاء أموال طائلة أنفقها بما عرف عنه من تبذير وإسراف». وزادت الأمور سوءاً عندما قام يوحنا الثاني سيد بيروت وفرسان الداوية بعد ذلك بقليل، بالإغارة على الجليل مما دفع «كتبغا» إلى التصرف بما لا يرغب فيه إذ وجه قوات مغولية إضافية عاملت الفرنج معاملة قاسية.

٥ً – الوضع الخاص قبل عين جالوت:

توفي الخان الكبير «منكو» في ١١ آب – أغسطس – سنة ١٢٥٩م بينما كان يشترك مع أخيه «قبيلاي» في حملة على الصين. ولم يعقد المجلس الوطني (القوريلتاي) لانتخاب الأخ الأصغر «أريق بوقـا» لمنصب الخان الكبير إلا في ربيع سنة ١٢٦٠م. وبقي

«هولاكو» خلال هذه الفترة ملتزماً جانب الحذر قرب الطرف الشرقي لأملاكه. وكان أكثر ما يخشاه «هولاكو» هو تدخل أبناء عمومته من القبيلة الذهبية والذين كان يتزعمهم «الخان بركة» في منطقة جبل القوقاز. ذلك أنه بينما كان بلاط «هولاكو» يتعصب للمسيحيين ويظهر عطفه الشديد عليهم، كان «الخان بركة» يتحول إلى جانب المسلمين ويتعصب لهم وينكر ما أجراه «هولاكو» من مذابح للقضاء على المسلمين. ولم يكن باستطاعة «الخان بركة» اتخاذ أي إجراء لأن القوات الرئيسية كانت مع «هولاكو». وأخيراً وقع الاحتكاك في جبال القوقاز التي تشكل الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ «بركة» و «هولاكو». فدأب «الخان بركة» وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية. وما أقدم عليه «هولاكو» بعد ذلك من محاولة لتوطيد سلطته في الجانب الشرقي لجبال القوقاز أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها «نوغاي» ابن اخت «بركة» بجيش «هولاكو» في سنة ١٢٦٥م قرب نهر «تريك».

لم يبق في العالم الإسلامي سوى دولة واحدة كبيرة تستطيع مجابهة التحدي المغولي – الصليبي المشترك، وهذه الدولة هي دولة المماليك في مصر، إلا أن هذه الدولة كانت تعاني من المتاعب الداخلية. وقد سبق التعرض لما قامت به «شجرة الدر» في القضاء على السلطان الأيوبي بمساعدة «ايبك» أول سلاطين المماليك. ولكن «ايبك» لم يكن مطمئناً إلى وضعه رغم زواجه من «شجرة الدر» لإعطاء الصفة الشرعية لحكمه. فعمل على تعيين الطفل

«الأشرف موسى» الأيوبي ليكون قسيماً له في السلطنة . ولكن هذا الطفل لم يلبث أن تحول إلى عبء ثقيل يرهق السلطة . كما أن طموح «شجرة الدر» لم يلبث أن اصطدم في سنة ١٢٥٧م بطموح «ايبك» ولم تكن «شجرةالدر» على استعداد للتنازل عن سلطاتها ، فدبرت مؤامرة لقتل «ايبك» بالتعاون مع «الطواشية» الذين قضوا على «ايبك» أثناء استحمامه في نيسان –إبريل– سنة ١٢٥٧م وكاد مصرعه يثير حرباً أهلية بين هؤلاء –أنصار «ايبك»– وأولئك الذين كانوا يجدون في «شجرة الدر» رمزاً للحكم الشرعي في البلاد . وكسب أعداؤها آخر الأمر المعركة حيث تعرضت «شجرة الدر» للضرب الشديد من وصيفاتها حتى ماتت في ٢ أيار – مايو– سنة ١٢٥٧م. وتقررت المنـاداة بـ «نور الدين علي» ابن السلطان «ايبك» (الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره) ليكون سلطاناً على مصر . ولكن «نور الدين» كان مجرداً من الكفاءةالقيادية . فعزله «المظفر قطز» –أحد رفاق أبيه القدامى– في كانون الأول – ديسمبر– ١٢٥٩م وحل مكانــه في السلطنة ، وإذ تولى «المظفر قطز» السلطة ، عــاد إلى مصر سائر المماليك –أمثال بيبرس– والذين حملتهم كراهيتهم لـ «ايبك» على الفرار إلى دمشق .

لم يكد «المظفر قطز» يسيطر على الموقف حتى وصلته سفارة من قبل «هولاكو» في بداية سنة ١٢٦٠م = ٦٥٨هـ تطلب إليه الخضوع لسلطان المغول والإذعان لهم . وكان رد **«المظفر قطز» هو الاقدام على قتل رسول «هولاكو»** ، والبدء على الفور بالاستعداد

للحرب التي لم يعد هناك مجال لتجنبها . وكانت مصر قد أصبحت في هذه الفترة ملجأ كل القادة الذين رفضوا الخضوع للمغول والاعتراف بسلطتهم ومعهم فلول القوات التي مزقتها جموع المغول. ومنها على سبيل المثال الخوارزمية وقوات أمير الكرك الأيوبي.

ووجد «المظفر قطز» أن الموقف يفرض عليه دفع إمارات الصليبيين للوقوف على الحياد من صراعه مع المغول، لا سيما وأنه سيضطر للسير على الساحل الفلسطيني ثم المضي إلى داخل بلاد الشام متوجهاً إلى أقصى الشمال لتهديد مواصلات خصمه «كتبغا» إذا تقدم إلى فلسطين. ولذا عمل على إرسال سفارة مصرية إلى «عكا» تطلب الإذن باجتياز أراضي الفرنج والحصول على المؤن اللازمة للجيش أثناء مسيره . هذا مع دراسة إمكانات تقديم دعم حربي حقيقي لجيش المسلمين ضد المغول .

وعندما وصل طلب «المظفر قطز» إلى عكا اجتمع البارونات جميعاً لمناقشة هذا الطلب. وكان البارونات يشعرون بالغضب من المغول لما أقدموا عليه منذ عهد قريب من نهب لمدينة صيدا. كما أنهم لم يثقوا بهذه القوة القادمة من الشرق والتي حفل سجلها بالمذابح الجماعية وبكل أنواع الجرائم البشعة .

لقد ألف معظم هؤلاء البارونات الحضارة الإسلامية، وكانوا يفضلون التعامل مع المسلمين على التعامل مع المسيحيين الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف. وأظهر البارونات أول الأمر ميلهم إلى أن يقدموا للسلطان «المظفر قطز» قوات مسلحة

إضافية . غير أن مقدم طائفة الفرسان (التيوتون) – الألمان – «أنو سانجر هاوزن» كان يقدر سياسة الملك «هيثوم» المؤيدة للمغول ، فحذرهم بأنه من الحماقة المبالغة في الوثوق بالمسلمين ، ولا سيما إذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول .

والمعروف أن لطائفة الفرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة أرمينيا . فكان من مصلحتهم تأييد سياسة «هيثوم» . وكان لموقف«أنوسانجرهاوزن» تأثيره على مجلس البارونات فتقرر رفض التحالف العسكري مع المسلمين، على أنهم وعدوا السلطان بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم وأن يقدموا له المساعدات اللازمة لضمان تموين جيشه .

أنهى السلطان «المظفر قطز» استعداداته للحرب ، وشكّل مقدمة لقواته وكلف قائده «بيبرس» بالتقدم. وانطلق «بيبرس» فتجاوز الحدود في ٢٦ تموز–يوليو–١٢٦٠م، وزحف على غزة، ولما لم يكن بغزة سوى قوة صغيرة بقيادة«بايدار» فقد تم إرسال إنذار إلى «كتبغا» لإعلامه بتقدم القوات المصرية وطلب إرسال الدعم. إلا أن«بيبرس» تحرك بسرعة ونجح في الاستيلاء على غزة وتدمير حاميتها قبل أن يصلها أي دعم .

ولم يلبث السلطان«قطز»أن غادر مصر في شهر آب–أغسطس– وسار بجيشه على الطريق الساحلي ، ولم تمض أكثر من أيام قليلة حتى أقام معسكره في الحدائق الواقعة خارج أسوار عكا. وقرر حاكم المدينة دعوة عدد من أمراء «قطز» لزيارة المدينة باعتبارهم

ضيوف الشرف . وكان من هؤلاء الأمراء «بيبرس» الذي اقترح على «قطز» عقب عودته إلى المعسكر الاستيلاء على عكا بهجوم مباغت نظراً لضعف الحامية فيها. غير أن «قطز» لم يكن مستعداً لخيانة مَن اتفق معهم على شروط محددة . كما أنه لم يكن على استعداد لتعريض قواته لغزوات انتقامية من قبل الإفرنج في حين أنه لم يحسم الصراع بعد مع المغول – العدو الأساسي الذي خرج لحربه .

ومرت لحظة حرجة شعر فيها الفرنج بالخطر نتيجة لكثرة عدد زائريهم من فرسان المسلمين ورجالهم ، ولكن الطمأنينة عادت لنفوسهم عندما وعدهم «المظفر قطز» ببيعهم ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول بأثمان منخفضة .

ولقد كان التوقف بظاهر عكا مناسبة جيدة للمسلمين الذين كانوا في حاجة لفترة قصيرة من الراحة بعد عناء المسير الطويل في سيناء خلال أصعب شهور السنة .

٦ً– المظفر قطز وعين جالوت :

كان «كتبغا» في بعلبك عندما وصلته أخبار تحرك الجيش المصري إلى غزة . فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل. ولكن ثورة اندلعت في دمشق أعاقت تحرك «كتبغا» فقد ضاق أهل دمشق ذرعاً بمضايقات الصليبيين ، فهب المسلمون في ثورة عاتية تحطمت أمامها دور المسيحيين وكنائسهم وكان من المحال السيطرة على الموقف إلا بعد أن تم زج

قوات كبيرة من المغول لاعادة الأمن إلى نصابه . وعندما فرغ «كتبغا» من قمع ثورة عاصمة الأمويين قاد جيشه في اتجاه الجنوب.

وبينما كان «قطز» في عكا علم أن «كتبغا» عبر نهر الأردن ووصل إلى الجليل الشرقي. فبادر على الفور بقيادة جيشه في اتجاه الجنوب الشرقي . واجتاز مدينة الناصرة ، فوصل في ٢ أيلول -سبتمبر- سنة ١٢٦٠م = ٦٥٨هـ إلى «عين جالوت» حيث سبق للجيش الصليبي أن تحدى «صلاح الدين» في سنة ١١٨٣م=٥٧٩هـ.

وفي صبيحة اليوم التالي قدم، الجيش المغولي، وصحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمنية . وافتقر «كتبغا» إلى الكشافة وعناصر الاستطلاع، كما كان شعور السكان مناوئاً له، فلم يتمكن من معرفة الموقف الصحيح لا من الناحية الطبوغرافية ، ولا من ناحية الموقف في معسكر المسلمين . ولم يعرف أن جيش المسلمين بكامله قد أصبح قريباً جداً منه وأن عناصر استطلاع المسلمين كانت تتابع كل تحرك لقوات المغول . هذا في حين كان «المظفر قطز» يضع مخططه بإحكام للإيقاع بجيش المغول بكامله وبدون أن يترك له أي فرصة للنجاة أو التملص من المعركة . ولما كانت قوات الطرفين في شبه تعادل فقد كان من الضروري تشتيت قوات المغول واستنزافها قبل القضاء عليها . ومن أجل ذلك ، عمل «المظفر قطز» على إخفاء كتلة قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يُظهر للعدو إلا المقدمة التي كان يقودها «بيبرس البندقداري» .

ونظم القائد المغولي «كتبغا» قواته، ولما شاهد مقدمة قوات المسلمين في مواجهته ألقى بكل قواته في المعركة حتى يستطيع حسم المعركة لمصلحته بأسرع ما يمكن. وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها «بيبرس» ورجاله. فخاض معركة قاسية ثم تظاهر بالتراجع نحو التلال، وأسرع «كتبغا» لمطاردة «بيبرس»، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى تم تطويق الجيش المغولي بكامله، وبصورة مباغتة. ومضت بضع ساعات من الصراع المرير، حاولت خلالها مجموعات من رجال «كتبغا» أن تشق لها طريقاً للخروج من دائرة الحصار فكانت سيوف المسلمين في انتظارهم، ولم يتمكن من النجاة سوى عدد قليل من المغول. وتحول ميدان المعركة إلى مجزرة حقيقية. ورغم ما تكبده المسلمون من خسائر، إلا أنهم استطاعوا انتزاع النصر.

ولم يحاول «كتبغا» الفرار من ميدان المعركة، بل بقي يقاتل بعناد حتى إذا ما أحاط به فرسان المسلمين لم يكن قد بقي حوله من رجاله سوى عدد ضئيل. **وأصيب حصان «كتبغا» فلقي مصرعه وسقط «كتبغا» إلى الأرض، فألقي القبض عليه، واقتيد أسيراً. وبأسره انتهت المعركة**، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال إلى السلطان الذي سخر لسقوطه. غير أنه أجاب في اعتزاز وتحد (بعد أن تنبأ بما سيتعرض له من انتقام من قبل الظافرين به) فقال متباهياً بأنه يختلف عن أمراء المماليك بأنه ظل دائماً محافظاً على ولائه لسيده. فاجتزوا رأسه.

مضت خمسة أيام على معركة «عين جالوت» عندما فتحت دمشق ذراعيها لاستقبال القائد المنتصر وتولى «الأشرف الأيوبي» إمارة حمص من جديد بعد أن تخلى عن المغول. كما رجع أمير حماه الأيوبي – والذي سبق له أن فرَّ إلى مصر عندما تقدم المغول – فتولى إمارة حماه. ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى تم طرد المغول من حلب واستعاد المسلمون السيطرة على بلادهم.

وعلى الرغم من غضب «هولاكو» لتمرد بلاد الشام وخروجها عن طاعته، فإنه لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعل، وبالرغم من ذلك، فقد أرسل جيشاً قوياً في محاولة منه لاسترداد حلب (في كانون الأول–ديسمبر) وسيطر هذا الجيش على حلب، إلا أن المقاومة استمرت بعناد مما أرغم المغول على الانسحاب بعد أربعين يوماً، قاموا خلالها بذبح أعداد كبيرة من المسلمين انتقاماً لمصرع «كتبغا»، وكان ذلك كل ما استطاع «هولاكو» أن يفعله للانتقام لصديقه الوفي.

أما السلطان «قطز» فقد استأنف رحلة العودة إلى مصر يكلله المجد والغار. ولكنه أخذ يرتاب في سلوك القائد «بيبرس» أقوى أتباعه وأشدهم بأساً، ولهذا فعندما طلب إليه «بيبرس» تعيينه نائباً على حلب، رفض «المظفر قطز» طلبه، فكان ذلك حافزاً إضافياً لإكمال المؤامرة. وحينما وصل الجيش المصري إلى حافة الدلتا، رأى «المظفر قطز» أن يمضي يوم العطلة في الخروج إلى صيد الأرانب، فخرج في جماعة من أمرائه يوم ٢٣ تشرين الأول

ـ اكتوبر ـ سنة ١٢٦٠م ، ولم يكد الموكب يبتعد عن المعسكر حتى تقدم أحدهم من السلطان كأنه يلتمس طلباً إليه . وبينما أمسك بيد السلطان كأنه يهم بتقبيلها، اندفع «بيبرس» فأتاه من الخلف وغرس سيفه في ظهر سيده ، وعندئذ أسرع المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر ، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان . وكان «أقطاي» ـ أتابك العساكر ـ في خيمة السلطان حين وصل المتآمرون . فبادر بالسؤال أيهم قام بقتل السلطان. فلما اعترف «بيبرس» بأنه هو الذي فعل ذلك ، طلب إليه «أقطاي» أن يجلس في دست السلطنة، وكان أول مَن بذل الولاء لـ «بيبرس» ، ثم حذا حذوه جميع قادة الجيش . وعاد «بيبرس» إلى القاهرة وقد أصبح سلطاناً على مصر[١] .

تعتبر معركة «عين جالوت» من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، على الرغم من أنها من الناحية العسكرية ومن ناحية العمليات نموذجاً لكمين كبير يقوم به جيش ضد جيش آخر ، وهو نموذج

---

(١) السلطان بيبرس، هو ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢١٠ ـ ١٢٧٧م = ٦٠٧ ـ ٦٧٦هـ) ينتمي إلى الأتراك القبجاق . ضخم الجثة ، أسمر البشرة ، أزرق العينين، ذو صوت جهوري شديد الوقع، وصل إلى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقاء. وجرى عرضه للبيع على أمير حماة الذي فحصه فاعتقد أنه غلام جلف غليظ. غير أنه أثناء عرضه بالسوق لفت نظر أحد الأمراء المماليك وهو (البندقداري) الذي أدرك ما عليه من ذكاء . وتم شراء «بيبرس» وألحق بالمماليك السلطانية فارتفع شأنه منذئذ بسرعة ، فلما أحرز النصر على الفرنج سنة ١٢٤٤م صار يعتبر من أكفأ عساكر المماليك . وبرهن على أنه رجل سياسي من الطراز الأول، بقدر ما برهن على كفاءة قيادية عالية في الحرب .

سبق استخدامه في التاريخ . **ولكن أهمية المعركة تكمن في قهر الجيش الذي انتقل من نصر إلى نصر على امتداد أربعة آلاف ميل.** وتبرز أهمية معركة «عين جالوت» في أنها أنقذت الإسلام من أخطر تهديد تعرض له. وكان من نتيجة المعركة أيضاً دعم المغول (الايلخانية) وحملهم على اعتناق الإسلام والدفاع عنه. وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية . إذ استعاد المسلمون قدرتهم بسرعة فائقة ، وأصبح بإمكانهم العمل للتخلص نهائياً من أعداء الدين. وبذلك تكون معركة (عين جالوت) نقطة التحول الحاسمة في الصراع ضد الصليبيين وضد المغول في وقت واحد . هذا بالرغم من أن الصليبيين قد رغبوا في التعاون مع التتار لتدمير المسلمين بصورة نهائية . وتبقى نتائج معركة (عين جالوت) أكثر أهمية بكثير من المعركة ذاتها .

٧ - ما بعد عين جالوت (الثأر) :

انصرف «بيبرس» لتوطيد حكمه وقد وضع هدفه الأول إنزال العقاب بالمسيحيين الذين سبق لهم أن قدموا الدعم للمغول. وتركز غضبه بصورة خاصة على «هيثوم» ملك أرمينيا و «بوهمند» أمير أنطاكية . فأرسل في نهاية فصل الخريف من سنة ١٢٦١م جيشاً للسيطرة على حلب ، وشن الغارات الواسعة على أملاك أنطاكية . وتجددت الغارات في الصيف التالي ، وتعرض ميناء السويدية للتخريب والنهب ، وتم تهديد مدينة أنطاكية ذاتها . غير أن «هيثوم» استنجد بـ «هولاكو» ، ثم وصل بقوة مؤلفة

من المغول والأرمن في الوقت المناسب لإنقاذ أنطاكية. وإذ ظلت سلطة المغول في شمال شرقي سوريا من القوة مـا يكفي لتهديد «بيبرس» ، فقد عمل على استخدام الطرائق الدبلوماسية .

وحدث في تلك الآونة أن أعلنت «القبيلة الذهبية» بقيادة «بركة خان» الجهر بالإسلام ، كما أعلن زعيمها «بركة خان» استعداده للتحالف مع «بيبرس» . كما أعلن «كيكاوس»[1] تحالفه مع «بيبرس» . وكذلك فعل «قرمان» الزعيم التركماني في شرقي «قونية» . وأصبح باستطاعة «بيبرس» الافادة من هؤلاء الحلفاء للضغط بصورة مستمرة على أرمينية .

ما أن رجع «بيبرس» من الشمال حتى استقبل في نهاية سنة ١٢٦١م سفارة تضم «يوحنا» كونت يافا و «يوحنا» سيد بيروت وذلك للتفاوض في عودة أسرى الفرنج الذين وقعوا في أيـدي المسلمين في السنوات الأخيرة ، وفي استيفاء الوعـد الذي قطعه السلطان «ايبك» بإعادة «زرين» في «الجليل» إليهم أو دفع تعويض عنها. ورفض «بيبرس» الاستماع إليهما برغم ما كان يظهره من ميل إلى «يوحنا» كونت يافا . وفي شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٦٣م قام «يوحنا» كونت يافا بزيارة أخرى إلى السلطان الذي

---

(١) كان «كيكاوس» هذا أحد سلطاني السلاجقة بالأناضول، سبق أن حرمه التحالف بين المغول والبيزنطيين من جهة وأخيه «قلج أرسلان» من جهـة أخرى الحكم في بلاده ، فهرب إلى بلاط «بركة خان» ثم عاد إلى بلاده بعد أن تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية و «بيبرس» .

كان يعسكر في تلك الفترة قرب جبل الطور ، فحصل منه على وعد بعقد هدنة وتبادل الأسرى. **غير أن الداوية والاستبارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم ، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة ، ولما لهم من أهمية مادية للطائفتين .**

وأصيب «بيبرس» ذاته بالذهول لهذا النهم الاستغلالي فقطع المفاوضات، ومضى إلى بلاد الفرنج . وبعد أن نهب «الناصرة»، ودمر كنيسة العذراء ، شن هجوماً مباغتاً على عكا في ٤ نيسان -إبريل- سنة ١٢٦٣م =٦٦٢هـ فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا . وكبد الفرنج خسائر فادحة ، على أن «بيبرس» لم يكن في حينها مستعداً لمنازلة المدينة فانسحب من أرباضها . وساور الناس الشكوك في أنه رتب أن يتعاون معه «فيليب مونتفورت» والجنويون من صور ، غير أن ضمير هؤلاء منعهم في آخر لحظة من التعاون معه .

بقيت الحدود بين المسلمين وإمارات الفرنج ميداناً للإغارات من الجانبين المتصارعين. وحدث في نيسان-إبريل- سنة ١٢٦١م أن قام سيد أرسوف «باليان ابلين» بتأجير إقطاعه للاستبارية، بعد أن أدرك أنه عاجز عن الدفاع لحمايته .

وفي بداية سنة ١٢٦٤م قبل الداوية والاستبارية توحيد قواتهما للاستيلاء على حصن «مجدو» الذي أطلق عليه الصليبيون اسم «حصن ليزون» ثم قامت الطائفتان بعد بضعة شهور بإغارة مشتركة على «عسقلان». بينما حدث في الخريف أن نجح المقاتلون الفرنسيون

الذين دفع لهم أجورهم «القديس لويس» في التوغل حتى بلغوا أرباض بيسان . ورد المسلمون على ذلك بأن شددوا في نهب قرى الفرنج الواقعة إلى الجنوب من جبل الكرمل، حتى لم تعد الحياة مأمونة.

خرج «بيبرس» من مصر على رأس جيش كثيف في بداية سنة ١٢٦٥م = ٦٦٤هـ بعد أن بلغه استعداد المغول للعدوان على شمال سوريا في ذلك الشتاء ، وعندما وصل إلى جنوب سوريا بلغه أن المقاتلين في شمال الشام منعوهم من تحقيق أهدافهم ، فأصبح باستطاعته استخدام جيشه لمهاجمة الفرنج في الجنوب . وبعد أن تظاهر بالتلهي في حملة صيد في التلال الواقعة وراء «أرسوف» ، **ظهر مباغتة أمام قيسارية، فسقطت المدينة على الفور في ٢٧ شباط – فبراير – سنة ١٢٦٥م** بينما صمدت القلعة مدة أسبوع، فأذعنت الحامية في ٤ آذار – مارس – سنة ١٢٦٥م ، وسمح لها «بيبرس» بالخروج من غير أن تتعرض للأذى ، غير أنه أمر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتها بالأرض، **ثم ظهر المقاتلون المسلمون في حيفا بعد بضعة أيام** . فهرع السكان الذين تلقوا الانذار في الوقت المناسب إلى السفن الراسية بالميناء بعد أن تخلوا عن المدينة والقلعة اللتين جرى تدميرهما عن آخرهما .

وفي تلك الأثناء هاجم «بيبرس» قلعة «عثليت» الضخمة التابعة للداوية وأمر بإشعال الحريق في القرية الواقعة خارج الأسوار. أما القلعة فإنها نجحت في مقاومتها له . وفي ٢١ آذار – مارس – تخلى «بيبرس» عن حصارها ثم زحف على «أرسوف» التي سبق

للاسبتارية أن شحنوها بالمقاتلين والمؤن، وكان بالقلعة نحو مائتان وسبعون من الفرسان الذين استبسلوا في القتال. غير أن المدينة السفلى سقطت في ٢٦ نيسان – إبريل – بعد أن دمرت أسوارها أدوات الحصار التي نصبها السلطان «بيبرس»، ولم تنقض ثلاثة أيام حتى استسلم قائد قلعة «أرسوف» الذي فقد ثلث عدد فرسانه[١].

وحل الدور على «عكا» غير أن الوصي «هيو» من سادة أنطاكية والذي كان بقبرص، هرع بسرعة فحشد كل مَن استطاع جمعه من الرجال – في الجزيرة – واجتاز بهم البحر. فلما تحرك «بيبرس» مرة أخرى من «أرسوف» في اتجاه الشمال، ظهر له أن «هيو» قد هبط إلى «عكا» في ٢٥ نيسان – إبريل – فعاد الجيش المصري إلى بلاده بعد أن ترك حاميات قوية واجبها حماية البلاد التي تم فتحها حديثاً. وبادر «بيبرس» بالكتابة عن أخبار انتصاراته إلى ملك صقليا «مانفرد» الذي لا زال بلاط مصر يحتفظ بالصداقة التي أقامها أبوه «فريدريك الثاني».

كان «قبيلاي» قد منح أخاه «هولاكو» لقب «ايلخان» وجعل له الحكم وراثياً على ممتلكات المغول في جنوب غربي آسيا. ومع أن مشاكله مع «القبيلة الذهبية» ومغول التركستان الذين

---

(١) كان وقع سقوط القلعتين في قبضة المسلمين مريراً على نفوس الفرنج. وأوحى إلى شاعر الداوية الغنائي – من التروبادور – وهو «ريسو برنوميل» بأن ينظم قصيدة بالغة الحزن والأسى يشكو فيها أن المسيح أضحى فيما يظهر مسروراً لما حل بالمسيحيين من ذلة ومهانة.

Gestes Des Chiprois. p. 171.

اعتنقوا أيضاً الإسلام منعته من مواصلة شن هجوم عنيف على المماليك ، فإنه لا زال يدخر من القوة مـا يكفي لمنع المماليك من مهاجمة حلفائه .

وفي تموز – يوليو – سنة ١٢٦٤م عقد آخر «قوريلتاي» في معسكره قرب «تبريز» . وشهد الاجتماع كل أتباعه ، ومنهم «داوود» ملك الكرج و«هيثوم» ملك أرمينيا و«بوهمند» أمير أنطاكية . ولكن هذا الاجتماع لم يحقق نتائج مهمة ، فقد مات «هولاكو» في أذربيجان يوم ٨ شباط –فبراير– سنة ١٢٦٥م. وتولت زوجته «طقز خاتون» ولاية العرش الذي احتفظت بـه لابن«هولاكو»الأثير عنده«أباقا» والذي كان والياً على تركستان. وماتت«طقز خاتون» في صيف السنة ذاتها. فاشتد حزن المسيحيين عليها ، غير أن المسلمين شعروا بأنهم تخلصوا من أكثر الأعداء الحاقدين عليهم «هولاكو» و «طقز خاتون» ، وأصبح باستطاعة السلطان«بيبرس» متابعة جهوده الدبلوماسية التي خلقت المتاعب لـ «الايلخان أباقا» بعد أن أتعبت «هولاكو» من قبله ، مع العمل في الوقت ذاته لاستئناف حملاته ضد الصليبيين دون أن يخشى تدخلاً خارجياً .

قام «الخان بركة» بالإغارة على حدود «أباقا» ابن «هولاكو» في أوائل صيف سنة ١٢٦٦م وانصرف«أباقا» إلى رد الإغارة عن فارس. وفي هذه الفترة خرج من مصر جيشان كبيران تولى قيادة الجيش الأول«الظافر بيبرس»، وتولى قيادة الجيش الثاني أكثر قادة المماليك

كفاءة وهو «**سيف الدين قلاون**» . ومضيا لتنفيذ واجبين متباعدين .

لم تمض فترة طويلة حتى ظهر الجيش الذي يقوده «بيبرس» أمام عكا في الأول من حزيران –يونيو– ١٢٦٦م وكانت حامية عكا التي ينفق عليها ملك فرنسا «لويس التاسع» قد تلقت منذ عهد قريب دعماً قوياً من فرنسا ، وبذلك استطاعت مقاومة هجوم جيش «بيبرس» الذي عمل عندما عرف قوة الحامية في عكا ، على تحويل مركز ثقل هجومه ، فقام بتظاهرة أمام حصن «مونتفورت» الذي كان تحت حماية الفرسان التيوتون – الألمان – ثم زحف بصورة مباغتة على «صفد» التي تحكم الداوية من قلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل . والمعروف أن تحصينات «صفد» قد تم تجديدها بكاملها منذ خمس وعشرين سنة ، وأن الحامية كانت وفيرة العدد ، ولو أن عدداً كبيراً منهم كانوا من المحاربين المسيحيين الوطنيين أو من المهجنين . وعلى هذا فقد نجحت حامية «صفد» في إحباط مجموعة الهجمات التي شنها «بيبرس» في أيام ٧ و ١٣ و ١٧ تموز –يوليو– ١٢٦٦م . وعندئذ أعلن «بيبرس» عن طريق (المنادين) بأنه يمنح العفو التام لكل مَن يستسلم له من العساكر الوطنيين . وكان لذلك أثره حيث التحق عدد كبير من هؤلاء بمقر قيادة «بيبرس» . وفي الوقت ذاته حدث انشقاق بين فرسان الداوية تحول إلى صراع مرير ، وأخذ المسيحيون الوطنيون في الفرار من الجيش .

ولم يلبث الداوية أن أدركوا أنه من المحال عليهم الاحتفاظ بالقلعة. فأرسلوا في نهاية الشهر جندياً من أصل سوري اعتقدوا ولاءه وإخلاصه بمهمة الذهاب إلى معسكر «بيبرس» وعرض تسليم الحصن. وعاد السوري واسمه «ليو» بوعد من السلطان بأن تنسحب الحامية إلى عكا بدون أن تتعرض للأذى. وتحول «ليو» عن ديانته فاعتنق الإسلام.

وباستيلاء «بيبرس» على «صفد» أصبح باستطاعته السيطرة على الجليل. وقد أفاد من ذلك فقام بالهجوم مباشرة على «تبنين» فسقطت في قبضته دون قتال. ثم أرسل من «تبنين» قوة لتدمير «قارة» المسيحية والواقعة بين حمص ودمشق بسبب صلتها بالإفرنج ومناصرتها لهم. وأمر بقتل البالغين واسترقاق الأطفال، وعندما أرسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة القتلى، أغلظ في رفض طلبهم، وقال لهم بأنهم «إذا كانوا يلتمسون جثث الشهداء فسوف يجدونها في وطنهم». ولتنفيذ تهديده، هبط إلى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين.

وعندما انسحب «بيبرس» بجيشه في فصل الخريف تم تجميع فرسان الطوائف الدينية العسكرية والكتيبة الفرنسية للقيام بهجوم مضاد على الجليل، غير أن مقدمة هذا الجيش وقعت في كمين أقامته حامية صفد يوم ٢٨ تشرين الأول - اكتوبر - بينما هاجم العرب معسكر الافرنج مما اضطر قوات الافرنج للانسحاب بعد أن تكبدت خسائر فادحة.

بينما كان «بيبرس» يقود الحرب في الجليل ، كان الأمير «قلاون» يقوم باغارة مباغتة في اتجاه طرابلس استولى أثناءها على حصني «القليعة» و «حالبة» ومدينة «عرقة» التي تحكمت في الطريق القادم من «البقيعة» إلى طرابلس . ثم أسرع بقيادة جيشه في اتجـاه الشمال ليلحق بجيش «المنصور» أمير حمص .
وتوجهت قواتهما المشتركة بعدئذ إلى حلب ثم انحرفت نحو الغرب إلى «قليقية» . وكان ملك أرمينيـا (الملك هيثوم) يتوقع قيام المسلمين بالهجوم . وحاول عند سماع نبأ وفاة «هولاكو» أن يصالح «بيبرس» سنة ١٢٦٣م، ولما كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يرد إليها من أخشاب من جنوب الأناضول ولبنان، ونظراً لوقوع هذه الغابات تحت سيطرة «هيثوم» وصهره «بوهمند» أمير أنطاكية ، فقد كانا يأملان باستخدام هذه الوسيلة للمساومة . غير أن ذلك لم يؤد إلا إلى إمعان «بيبرس» في عزمه على القتال .

وفي ربيع سنة ١٢٦٦م توجه «هيثوم» إلى بلاط «الايلخان» في تبريز، بعدأن علم أن هجوم قوات المسلمين قد بات وشيك الوقوع. وبينما كان في تبريز يلتمس المساعدة من المغول ، هبت العاصفة على «قليقية» . كان الجيش الأرمني بقيادة ولدي «هيثوم» وهما «ليو» و «ثوروس». وعندما عبرت قوات المسلمين جبال الأمانوس أسرع الأرمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم إلى سهل «قليقية». ودارت المعركة الحاسمة يوم ٢٤ آب –أغسطس– وتعرض الأرمن للهزيمة الساحقة. وسقط «ثوروس» قتيلاً بينما وقع «ليو» في الأسر.

وانساب المسلمون المظفرون في «قليقية» . فقام «قلاون» بتدمير «أياس» و «أذنه» و «طرسوس»، بينما قام المنصور أمير جيشهم ، فتجاوز «المصيصة» إلى عاصمة الأرمن «سيس» حيث تم تدمير القصر الملكي ونهبه ، وأُشعلت النيران في الكاتدرائية . وقُتل بضعة آلاف من السكان . وعادت قوات المسلمين إلى حلب في نهاية شهر أيلول – سبتمبر – وهي تحمل معها نحو أربعين ألف أسير وقافلة ضخمة من الغنائم . وأسرع الملك «هيثوم» بالعودة من بلاط «الايلخان» – ومعه قوة من المغول – فألفى ولي عهده أسيراً وعاصمته خراباً وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكة «قليقية» من هذه الكارثة أبداً. ودفعت ثمن تحالفها مع المغول.

أرسل «بيبرس» قواته في خريف سنة ١٢٦٦م = ٦٦٥هـ لمهاجمة أنطاكية بعد أن تخلص من الأرمن، غير أن قادته لم ينفذوا الواجب على النحو الذي كان يريده «بيبرس» – مما أثار غضبه – أما هو فإنه لم يترك للفرنج فرصة للراحة. وظهر مرة أخرى أمام عكا في أيار – مايو – سنة ١٢٦٧م = ٦٦٦هـ . ورفع «بيبرس» الرايات التي سبق أن استولى عليها من الداوية والاستبارية مما ساعد قواته على المسير حتى أسوار عكا قبل أن تنكشف الخدعة. ولكن حامية عكا استطاعت بالرغم من ذلك إحباط الهجوم ولكنها تكبدت مقابل ذلك خسائر فادحة جداً . وزاد الأمر سوءاً ما حدث من صراع بين الصليبيين أنفسهم (البنادقة ضد الجنويين) مما جعل الحياة في عكا بالغة القسوة .

خرج «بيبرس» مرة أخرى من مصر في أوائل سنة ١٢٦٨م= ٦٦٧هـ ولم يبق للمسيحيين من ممتلكات جنوبي عكا سوى قلعة «عثليت» التي امتلكها الداوية ، ومدينة «يافا» التي كانت في حوزة رجل القانون «يوحنا ابلين» الذي استطاع دائماً الحصول على احترام المسلمين. إلا أن «يوحنا» هذا مات في ربيع سنة ١٢٦٦م، فزج «بيبرس» قواته التي ظهرت مباغتة أمام «يافا» في ٧ آذار -مارس- سنة ١٢٦٦م. ونجحت في الاستيلاء عليها بعد اثنتي عشرة ساعة من القتال المرير . وسمح للحامية بالالتجاء إلى عكا ، ودمر القلعة ؛ وأمر بإرسال ما تحويه من خشب ورخام إلى القاهرة من أجل استخدامها في بناء المسجد الكبير الجديد الذي كان «بيبرس» يشيده . وكان الهدف التالي لـ «بيبرس» ، قلعة «الشقيف» التي نظم «بيبرس» الحصار حولها وأقام عليها المنجنيقات تقذفها لمدة عشرة أيام متواصلة، فاستسلمت الحامية في ١٥ نيسان -إبريل- وسمح «بيبرس» للأطفال والنساء بالانتقال إلى صور، وأصلح «بيبرس» القلعة وشحنها بقوة كبيرة من العساكر . ثم توجه إلى وادي العاصي. ووصل في ١٤ أيار -مايو- إلى أنطاكية حيث قسم قواته إلى ثلاثة جيوش : توجه جيش للاستيلاء على «السويدية» وقطع الاتصال بين أنطاكية والبحر. وتحرك الجيش الثاني إلى دروب الشام لمنع كل مساعدة تصل إلى أنطاكية من قليقية . أما الجيش الرئيسي بقيادة «بيبرس» ذاته فإنه أخذ يقترب من المدينة لتطويقها .

ولما كان أمير أنطاكية «بوهمند» في طرابلس، فقد تولى قيادة الحامية المدافعة عن أنطاكية «الكندسطبل سيمون مانسل» . وكان قد تم إصلاح أسوار أنطاكية بحيث أنها أصبحت قادرة على ضمان نوع من الحماية ، إلا أن قائد الحامية ارتكب حماقة كبيرة إذ قاد قواته لقتال المسلمين خارج المدينة . وهو نوع من القتال يجيده المسلمون أكثر مما يتقنه الفرنج وسقط قائد الحامية أسيراً. فاستخدمه «بيبرس» لإقناع الحامية بالاستسلام ، غير أن نوابه داخل الأسوار رفضوا الإصغاء إلى أوامره .

وقام المسلمون بعد فشل المفاوضات بشن هجوم شامل من كل جهات أنطاكية يوم ١٨ أيار -مايو- سنة ١٢٦٨م = ٦٦٧هـ ، وبعد أن اشتد القتال حدثت ثغرة حيث امتدت الأسوار على منحدر جبل «سلبيوس»، وتدفق منها المسلمون إلى داخل المدينة. وقرر «بيبرس» إغلاق أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وجرت مذبحة لم تتمكن في كل الأحوال منافسة تلك المذابح التي قام بها المغول وأنصارهم من قوات أنطاكية وأرمينية . ولو أن المسلمين لم يعتادوا في حروبهم إجراء مثل هذه المذابح .

وفي ١٩ أيار - مايو- أمر السلطان بجمع الغنائم وتوزيعها . وظهر أن مدينة أنطاكية هي من أغنى مدن الصليبيين إذ تجمَّع فيها كل ما نهبه المقاتلون في حروبهم مع المسلمين وجاء المسلمون الآن لاسترداد أموالهم وكنوزهم ، وتوافر بها من النقود الذهبية والفضية ما صار يوزع بالطاسات -كما يقول المؤرخ المسلم «أبو الفداء»-

وانتهت حياة هذه الإمارة الصليبية التي عاشت مائة وسبعين سنة خارج حظيرة الإسلام .

ولم تمض سوى فترة قصيرة على سقوط أنطاكية حتى استقر في دمشق مقر كل من الكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية بسوريا. وقرر الداوية بعد أن ضعفت أرمينيا ودمرت أنطاكية أنه من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال الأمانوس فجلوا بدون قتال عن «بغراس» وقلعة «لاروش دي روسول» ولم يبق من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية التي أصبحت جيباً معزولاً.

ووجد «بيبرس» أنه من الضروري التوقف قليلاً بعد إزالة أول إمارة صليبية أقامها الفرنج في الشام . لا سيما وأنه ظهرت بعض الشواهد التي تشير إلى احتمال قيام المغول بهجوم جديد ، كما ترددت شائعات تفيد بأن ملك فرنسا أخذ في الإعداد لحملة صليبية ضخمة[1]. فلما أظهر الفرنج رغبة في عقد هدنة ، أرسل «بيبرس» سفارة إلى عكا تعرض وقف العداوة بصفة مؤقتة .

---

(١) حاول ملك أراجون «جيمس الأول» الاشتراك مع البابا في إثارة حملة صليبية جديدة بالتعاون مع المغول فأوفد سفارة برئاسة «جيمس ألاريك ربينيان» إلى بلاط «الايلخان أباقا» في سنة ١٢٦٧م للإعلام عن قرب قيام حملة يقودها ملك برشلونة وملك فرنسا واقتراح عقد اتفاق عسكري مع «الايلخان» . ولكن «أباقا» لم يكن في وضع يسمح له بقطع وعد بسبب انصرافه لقتال القبيلة الذهبية(مسلمي المغول). على أن «أباقا» كتب إلى ملك فرنسا «القديس لويس» يعاهده في سنة ١٢٧٠م على بذل كل دعم عسكري ممكن إذا ما قدمت حملة صليبية إلى فلسطين .

وحاول «هيو» ملك قبرص والوصي على بيت المقدس الحصول على بعض الامتيازات عن طريق التظاهر بالقوة، فقام باستعراض قواته أمام سفير «بيبرس» -محيي الدين- ولكن هذا أجاب في غير اكتراث «بأن كل هذا الجيش ليس في كثرة عدد الأسرى المسيحيين في القاهرة» . وتم عقد اتفاق للهدنة لمدة سنة ولكن هذه الهدنة لم تكن لتمنع القيام بإغارات صغيرة في ربيع سنة ١٢٦٩م على البلاد التي لا زالت تحت قبضة الصليبيين .

حاول الفرنج تنظيم أمورهم وإزالة الخلافات القائمة فيما بينهم، وقام «جيمس الأول» ملك برشلونة بتوجيه حملة إلى الشرق، ولكنها لم تفلح في التأثير على الموقف إذ استطاع «بيبرس» نصب كمين بالقرب من عكا في نهاية كانون الأول - ديسمبر - ١٢٩٦م دمَّر فيه قوات الصليبيين الذين غادروا عكا لقتال المسلمين تدميراً كاملاً . ولم يلبث بعدها إبنا ملك برشلونة أن عادا إلى بلادهما دون تحقيق أي نتيجة .

وفي تلك الأثناء بقيت الاتصالات بين المغول والصليبيين مستمرة، ولكن المساعدة الوحيدة التي استطاع الايلخان «أباقا» تقديمها للمسيحيين هي تقديم قائد من أشهر قادة المالك إلى ملك أرمينيا وهو القائد «شمس الدين سنقر الأشقر» -الباشق الأحمر- والذي أسره المغول في حلب . ووافق «بيبرس» على أن يطلق سراح ابن ملك أرمينيا «ليو» مقابل إطلاق سراح «شمس الدين سنقر الأشقر»، كما وافق على عقد هدنة مع ملك أرمينيا «هيثوم»

بشرط أن يسلمه الأرمن حصون جبال الأمانوس وهي «دربساك» و «بهسنا» و «رعبان» وتم إبرام المعاهدة في آب -أغسطس- سنة ١٢٦٨م.

وفي سنة ١٢٧٠م قام ملك فرنسا بقيادة حملة صليبية جديدة لم تتوجه إلى فلسطين وإنما توجهت إلى «تونس» ولكن قائدها لم يلبث حتى مات تحت أسوار «تونس»، وبموت الملك رجعت الحملة دون تحقيق أي نتيجة.

وتحالف «بيبرس» مع «الإسماعيلية» الذين أنكروا تحالف الصليبيين مع المغول الذين عملوا على تدميرهم في فارس وفي الشام. كما جاءت فتوحات «بيبرس» لتحررهم من الأتاوة التي كانوا يدفعون للاسبتارية. وعلى أساس هذا الاتفاق قام «الإسماعيلية» بتنظيم الاغتيالات ضد أولئك الذين كانوا يشكلون تهديداً للمسلمين ومنهم «فيليب مونتفورت» الذي أجريت محاولة اغتياله في كنيسة صور مع ابنه يوم الأحد ١٧ آب - أغسطس - ١٢٧٠م. وتعاون «الإسماعيلية» مع «بيبرس» في الاستيلاء على «القلعة البيضاء» في «صافيتا» في شباط - فبراير- ١٢٧١م وحصن الأكراد أو «قلعة الحصن» في ٣ آذار - مارس - ١٢٧١م والتي اشترك فيها جيش حماة بقيادة أمير المدينة المنصور. وتبع ذلك الاستيلاء على «عكار» وقلعة الاسبتارية جنوب البقيعة التي سقطت في أول أيار -مايو- بعد حصار استمر أسبوعين.

قدم إلى فلسطين بعد ذلك ولي عهد إنكلترا «الأمير ادوارد»

الذي وصل إلى عكا في ٩ أيار–مايو– سنة ١٢٧١م وحاول إعادة تنظيم الأمور وشن الحرب على المسلمين وإثارة الحماسة ، لكنه وجد أنه من المحال عليه تغيير الموقف الذي وصل إلى مرحلة كبيرة من التدهور . ولهذا جرب من جديد استثارة المغول **فارسل سفارة إلى الايلخان «أباقا» تتألف من ثلاثة رجال انكليز هم «ريجنالد رسل» و «جودفري ويلبس» و «يوحنا باركر» .**

ووافق «أباقا» على تقديم كل دعم ممكن ، وعمل على سحب عشرة آلاف فارس من حامياته في بلاد الأناضول وقادها إلى سوريا عن طريق «عين تاب» في تشرين الأول – اكتوبر– سنة ١٢٧١م ، ونجح «أباقا» في هزيمة حامية التركمان التي كانت تدافع عن حلب ، وتابع المغول تقدمهم إلى «معرة النعمان» و «أفامية» .

وكان «بيبرس» وقتها في «دمشق» ومعه جيش كثيف ، ولكنه بالرغم من ذلك طلب الإمداد من مصر ، ثم أخذ في التحرك نحو الشمال (في ١٢ تشرين الثاني –نوفمبر– سنة ١٢٧١م) وما أن علم المغول بذلك حتى أخذوا في الانسحاب إذ لم يكن باستطاعتهم مجابهة جيش «بيبرس» ، وفي الوقت ذاته تمرد أتباعهم من الترك المسلمين في بلاد الأناضول . واكتفى المغول بما حصلوا عليه من غنائم .

وأفاد ولي عهد إنكلترا «ادوارد» من انصراف «بيبرس» لقتال المغول ، فقاد الفرنج عبر جبال الكرمل وأغار على سهل «شارون» ، ولكنه وجد أنه من الصعب عليه احتلال أصغر حصن في الجليل ، فاضطر إلى الانسحاب دون تحقيق أي نتيجة .

وتوسط «هيو» ملك قبرص والوصي على بيت المقدس في الصلح بين «بيبرس» و «ادوارد» ، وتم إبرام الصلح في ٢٢ أيار—مايو— سنة ١٢٧٢م=٦٧١هـ وذلك في قيسارية بين السلطان «بيبرس» وحكومة عكا. كفل الصلح السلام لمملكة بيت المقدس بعكا لمدة عشر سنوات وعشر شهور. وتعرض «ادوارد» بعد ذلك لمحاولة اغتيال —وهو في حجرة نومه— يوم ١٦ حزيران—يونيو— سنة ١٢٧٢م. وما أن تماثل للشفاء حتى أقلع من عـكا في ٢٢ أيلول —سبتمبر— وعاد إلى إنـكلترا فألفى نفسه ملكاً عليها .

أدرك البابا «غريغوري» العاشر خطورة ما وصلت إليه الامارات الصليبية ، فأمضى الفترة بين سنة ١٢٧٢م و١٢٧٤م في جمع التقارير عن الموقف ودراستها، ومن ثم عقد «مجمع ليون» في أيار—مايو— سنة ١٢٧٤م واتخذت مقررات لحمل أمراء أوروبا —الذين لم يظهروا حماسة لإرسال حملات جديدة— من أجل تنفيذ ما أصدره المجمع من قرارات (جليلة الشأن) .

ولكن شيئاً لم يحدث ، سوى زيادة نفوذ فرنسا في الشرق ، الأمر الذي كان يساعد «بيبرس» على الاطمئنان للمضي في مشروعاته دون أن يتعرض لتهديد التدخل من قبل الغرب. وكان الانقسام في معسكر الغرب هو أفضل ضمانة لانصراف الصليبيين عن المسلمين.

وعلى هذا قاد «بيبرس» جيشه في ربيع سنة ١٢٧٥م، فأغار على قليقية ودمر المدن الواقعة في السهول ، وبعد سنتين أغار على بلاد الأناضول، حيث مملكة السلاجقة الخاضعة للايلخان «أباقا»،

وأنزل «بيبرس» بجيش المغول هزيمة ساحقة في ١٨ نيسان – إبريل – سنة ١٢٧٧م ، ولم تنقض سوى خمسة أيام حتى دخل «بيبرس» قيصرية «مازاكا» – قيصرية الروم – . وأظهر السلاجقة – المغلوبون على أمرهم – بانتصار قوات المسلمين على المغول. وهذا ما أغضب «أباقا» الذي جرد جيشاً قوياً وصل بـه إلى الأناضول ، بعد أن كان «بيبرس» قد انسحب منها وعاد إلى بلاد الشام ، فتعرضت المملكة السلجوقية من جديد لانتقام المغول .

لم يعمر «بيبرس» بعـد ذلك طويلاً . فتوفي في أول تموز – يوليو – سنة ١٢٧٧م ، وزال بوفاته أكبر قائد عمل طويلاً للمسلمين بعد «صلاح الدين» .

عندما تولى «الظاهر بيبرس» السلطنة كانت ممتلكات الفرنج تمتد على الساحل من غزة حتى قليقية ، وما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميها ، وعندما توفي بعد سبع عشرة سنة من حكمه لم يبق للصليبيين أكثر من بضع مدن على امتداد الساحل أبرزها عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وانطرطوس ، فضلاً عـن مدينة اللاذقية المعزولة وقلعتي عثليت والمرقب . ولم يعش «بيبرس» ليشهد اختفاءها التام ، غير أنه جعل ذلك أمراً لا مفر منه .

واستطاع «بيبرس» انتزاع إعجاب المسلمين بمـا أظهره من الغيرة على الدين والالتزام بالعمل له . علاوة على ما تميز بـه من خصائص أبرزها كونه جندياً لامعاً وسياسياً بارعاً وإدارياً حكيماً.

لم ينتقص من قدره أنه جرى عليه الرق التزاماً بقواعد الشريعة الإسلامية . ولم ينتقص من قيمته أنه كان عبداً قبل ذلك ، فقد حرر نفسه ثم عمل على تحرير المسلمين . وقد حفلت كتب السيرة والتراث الخالد بكثير من الشواهد عن عظمته وكفاءته .

وما هو مهم بالنسبة لموضوع البحث هنا هو أنه كان من أعظم حكام عصره في السياسة والحرب . أما اهتمامه بالعلوم والفنون والبناء وإحياء الدين والغيرة عليه فهي أمور متداخلة كلها في إطار «تأمين القاعدة الصلبة» لمجابهة التحديات في أخطر فترة عرفها المسلمون حتى تلك الفترة .



الفصل الثالث

فن الحرب والحروب الصليبية

آ – في الاستراتيجية العليا :

١ً– استراتيجية الهجوم غير المباشر. ٢ً– الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة. ٣ً– بناء المجتمع وإعادة التنظيم. ٤ً – وضوح الهـــدف . ٥ً – الحرص على المسلمين . ٦ً – استراتيجية الحرب التشتيتية . ٧ً – استراتيجية الهجمات الوقائية .

ب – في مباديء الحرب :

١ً– المباغتة . ٢ً– أمن العمل . ٣ً– القدرة الحركية. ٤ً– المبادأة واستخدام القوة الهجومية. ٥ً– مبدأ الاقتصاد بالقوى. ٦ً–المحافظة على الهدف. ٧ً–المؤخرات والشؤون الإدارية .

ج – قادة المسلمين وفن القيادة :

١ً– العنف في القضاء على أعداء المسلمين. ٢ً– التحريض على الجهاد. ٣ً–الشجاعة في مواجهة الخطر. ٤ً–القرارات الصحيحة. ٥ً– إدارة الحرب وحماية المسلمين المجاهدين في سبيل الله .

د - المجاهدون في سبيل الله :

١ً- الاستعداد الدائم للقتال. ٢ً- الروح المعنوية العالية.

٣ً- القدرة على تحمل الصعاب. ٤ً- الانضباط والطاعة.

٥ً- حرية العمل العسكري والسياسي .



فن الحرب والحروب الصليبية

مجموعة من الخصائص تبرزهـا مسيرة الأحداث في الحروب الصليبية ، منها مـا يتعلق بالسياسة الاستراتيجية (أو السياسة العليا) ومنها مـا يرتبط بأفق العمليات (أو الأعمال القتالية) ومنها أيضاً ما يتصل بتنفيذ الواجبات القتالية تعبوياً (تكتيكياً).

ولئن قـام المسلمون في أيام الفتوحات بتطبيق الأعمال القتالية في إطار مـا يمكن تسميته وفق المصطلحات الحديثة بـ « الهجوم الاستراتيجي» فقـــد عمل المسلمون في أيام الحروب الصليبية بتطبيق ما يمكن تسميته بـ «الدفاع الاستراتيجي» ولكن بقيت الأعمـال في الحالين أعمـالاً هجومية على مستوى العمليات .

فلم يكن العرب المسلمون الأوائل، ولم يكن أحفادهم من المسلمين ينتظرون قدوم العدو . وإنما كانوا يخرجون بحثاً عن المعركة . ولم يكونوا في الحالين يعتصمون وراء التحصينات وإنما كانوا يعتمدون على تطوير حرب الحركة من أجل الوصول إلى الحسم. هذا في حين كان الفرنج –على الأغلب– يعتمدون سياسة استراتيجية مغايرة ، إذ قاموا بهجوم استراتيجي وقادوا أعمالهم القتالية في

إطار دفاعي (عمليات دفاعية لهجوم استراتيجي) ويظهر ذلك من حرص الصليبيين على تنظيم المواقع الدفاعية والاهتمام بالتحصينات وبناء القلاع بقدر ما يظهر حرص المسلمين على تدمير المواقع الدفاعية وإزالة التحصينات وتدمير القلاع. ولكن بالرغم من هذا الإطار العام، فهناك ظواهر بارزة في التحول الاستراتيجي الذي جاء في أعقاب معركة حطين، ثم برز بصورة أكثر وضوحاً بعد معركة «عين جالوت» **وهو انتقال المسلمين من الدفاع الاستراتيجي الى الهجوم الاستراتيجي وانتقال الفرنج من الهجوم الاستراتيجي الى الدفاع الاستراتيجي. وقد أخذ هذا التحول شكلاً مميزاً يمكن أن يطلق عليه اسم «التحرير الزاحف» وهو شكل يناقض تماماً إقامة الامارات الصليبية في البداية والذي يمكن تسميته «بالضم الزاحف».**

وقد بات من الواضح أن الصليبيين قد بدؤوا حربهم بالاستيلاء على المدن الهامة ثم أخذوا في تأمين الاتصال فيما بينها مع التوسع التدريجي للسيطرة على الحصون الهامة والمواقع الرئيسية وبذل الجهود باستمرار للإفادة من كل ضعف يظهره المسلمون لتطوير عملية «الضم الزاحف» ثم جاء التحول. فبدأ «صلاح الدين» بتحرير القدس والمدن الداخلية – التي كانت تعيق اتصال المسلمين في مصر وبلاد الشام – وتطورت عملية التحرير الزاحف في الاتجاه المضاد – من الداخل في اتجاه الساحل – حتى لم يبق بعد معركة «عين جالوت» وانتهاء عهد «الظاهر بيبرس» سوى مدن قليلة وبعض المواقع الثانوية.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن هذا التحول لم يكن بسبب انتصار المسلمين في«حطين» وفي«عين جالوت»، ولو أنهما حددتا زمنياً هذا التحول ، وإنما كان نتيجة لحروب الاستنزاف الطويلة التي قادها المسلمون وأظهروا فيها تصميمهم وعنادهم على متابعة الجهاد حتى النصر، وحتى تحرير البلاد من هجمات الغرباء البرابرة. ولقد أدت حروب الاستنزاف التي مهدت للمعارك الحاسمة إلى تكوين قناعات في الغرب بعدم جدوى هـذه الحملات، وأنه من المحال الابقاء على البناء الضخم الذي حشد الغرب كل إمكاناته وقدراته لإقامته. وعلى هذا، وبالرغم من تجدد الدعوة الصليبية بعد كل انتصـار للمسلمين ، وبالرغم من استمرار تدفق الحملات لمنح الكيانات دماً جديداً يساعدها على البقاء والاستمرار، إلا أن استنزاف قدرات هذه الحملات قد أقنعها في النهاية. وأقنع قادتها، بأن كل الجهود إنما تصطدم بجدار صلب لا سبيل لإضعافه أو النيل منه. وأن مصير هذا البناء في النهاية هو الانهيار الحتمي. ويصبح من الطبيعي إيجاد التفسير الصحيح لفتور الحماسة وضعف العاطفة (الصليبية) ، التي أدت في النهـاية إلى انحراف الحملات الصليبية عن أهدافها (كالحملة الرابعة التي توجهت إلى بيزنطة أو حملة الأطفال أو حملة ملك فرنسا على تونس) .

وفي إطار حرب الاستنزاف هذه ، كان من المحال على قادة العرب المسلمين التفكير في الحسم الشامل للصراع بمعركة واحدة، ولكن ذلك لم يكن يتعارض مع عملية البحث المستمر عن النصر الموضعي أو النصر المحدود. وكانت محصلة الانتصارات هي الطريق

للنصر الشامل . ومن هنا فقد رسمت الحروب الصليبية كل أبعاد الحرب طويلة الأمد قبل أن يعرف العالم نظرية « الحرب طويلة الأمد» بأكثر من سبعة قرون . وحددت جماهير المسلمين هذه النظرية عندما رفضت الاستعباد الديني (والذي يقابله في العصر الحديث الاستعباد القومي) وصممت على انتزاع النصر .

وطبيعي أن تكون هذه الحرب طويلة الأمد تناوباً بين السلم والحرب وتواتراً بين الهدنة والصراع المسلح. ولكن النقطة البارزة هي تحديد السلم أو الهدنة بمدة محدودة جداً وبصورة دقيقة على نحو ما سبق ذكره «تحديد الهدنة بالسنوات الميلادية وما يقابلها من سنوات وأشهر هجرية » والنقطة البارزة الثانية هي إجراء المفاوضات من قبل مندوبين عن ملوك المسلمين وأمرائهم وتجنب الاتصال المباشر، والنقطة البارزة الثالثة هي عدم التساهل أبداً في حقوق المسلمين أو التفريط بها « ويظهر ذلك من خلال ردود الفعل الغاضبة التي أظهرها المسلمون عندما تساهل خلفاء «صلاح الدين» فمنحوا الصليبيين حق الإقامة في القدس وتسليمها لهم ، مما دفع المسلمين إلى تنظيم المقاومة ، وتصعيد الجهاد ، إلى أن تم إحباط الاتفاقية بهجوم الخوارزمية » وكان هذا الدرس كافياً لإقناع أمراء المسلمين بعدم جدوى أي اتفاق يتناقض مع مصلحة المسلمين ، وعدم فائدة أي معاهدة تعيق المجاهدين في سبيل الله عن متابعة الحرب حتى تحقيق الهدف .

ولقد تعاقب على قيادة الحرب ضد الفرنج وضد التتار عدد

غير قليل من القـادة (من زنكيين وأيوبيين ومماليك وسلاجقة) ولم يكن هؤلاء جميعاً يشكلون وحدة سياسية، **فكانوا إلى الاختصام أقرب منهم إلى الاتفاق**، وكان العداء فيما بينهم يصل أحياناً إلى درجة الحرب - أو حتى إلى الحرب الفعلية - كما أنهم لم يكونوا جميعاً على درجة واحدة من الكفاءة القيـادية ، ولم يكن حظهم متساوياً في إدارة الحرب وفي اقتناص النصر، إلا أنهم كانوا جميعاً أتباع مدرسة واحدة في فن الحرب، إنها مدرسة «المذهب العسكري الإسلامي المتفرع عـن العقيدة الدينية » وهي مدرسة أصبحت - قبل الحروب الصليبية بعهد طويل - محددة المباديء راسخة الجذور، وأصبحت فضائلها الحربية الطابع المميز لكل مجاهد في سبيل الله . وفي هذا المناخ الشامل يصبح واجب القـادة محدداً بتنسيق الجهد، وتوجيه الفاعليات والقدرات القتالية، وهو واجب برهن جميع القادة على كفاءتهم العالية في ممارسته .

يظهر ذلك كله صعوبة فصل ما حدث **فوق أرض «عين جالوت»** عما حدث قبل ذلك بمدة ثلاثة وسبعين سنة **فوق أرض «حطين»** وعما حدث بعد ذلك من تصفية للإمارات الصليبية . فقد كانت الأحداث تسير وهي متشابكة بمجموعة معقدة جداً من الروابط مما يفرض بالضرورة التركيز على أبرز العلاقات والروابط المتعلقة بتلك الأحداث .

لقد كانت أسس السياسة الاستراتيجية الإسلامية واضحة كل الوضوح ، وكانت مباديء الحرب محددة بدقة كاملة بحيث أن

غياب ملك أو سقوط أمير لم يكن ليبدل من الموقف . » ولعل في سلوك «شجرة الدر» أثناء الغزو الصليبي لمصر هو أفضل برهان على ذلك». ويؤكد ذلك – مرة أخرى. على أن الدور الأساسي في الحروب الصليبية هو ذلك الذي اضطلعت به جماهير المجاهدين في سبيل الله – وبصورة خاصة في الشام ومصر– والتي كانت تعمل على فرض وجودها بصورة مستمرة لتطوير الصراع المرير إلى أن تم بلوغ الهدف – وهو النصر الكامل – .

آ – في الاستراتيجية العليا

١ً– استراتيجية الهجوم غير المباشر :

عندما تحرك «المظفر قطز» إلى «عين جالوت»، سار على امتداد الساحل، وعقد هدنة مع عكا واتفق معها على السماح لقواته بالمرور، وكان هدفه السير في اتجاه الشمال لقطع خطوط إمداد قوات المغول وضرب مؤخراتهم، **وتعتبر هـــذه المناورة النموذج المثالي لاستراتيجية الهجوم غير المباشر على مستوى العمليات .**

وجرت قبل ذلك وأثناء هجوم الصليبيين على مصر أن عمل «الكامل» في منتصف آب –أغسطس– ١٢٢١م على إنزال السفن في النيل «فقطعت على الأسطول الصليبي السبيل عند ارتداده... وعزل الجيش عـــن قواعده في دمياط ... وتم تطويقه بكامله . مما أرغم قادة الفرنج على الرضوخ لشروط «الكامل» وذلك بالتخلي عن دمياط والالتزام بمراعاة الهدنة لمدة ثماني سنوات» وهذا نموذج مثالي أيضاً لاستراتيجية الهجوم غير المباشر على مستوى العمليات.

وعندما فشل «بيبرس» في اقتحام «صفد» بالهجوم المباشر في أيام ٧ و١٣ و١٧ تموز–يوليو– ١٢٦٦م أعلن أنه يمنح العفو التام لكل مَن يستسلم له من العساكر الوطنيين. والتحق كثير من أفراد حامية صفد بقوات «بيبرس» ، مما خلق انشقاقاً في صفوف قادة الحامية الصليبية أرغمها على الاستسلام في نهاية شهر تموز–يوليو–. وعندما أرسل «بيبرس» سفارة إلى عكا وحاول الأمير «هيو» إرهاب رئيس السفارة «محي الدين» بإجراء تظاهرة بالقوة، كان رد «محي الدين»: «إن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع الأسرى المسيحيين في القاهرة» ووجد أمير عكا أنه أمام خصوم لا يمكن إرهابهم، وأنه في موقف الضعف – لا سيما بعد أن انتزع المسلمون أنطاكية من قبضة الصليبيين – فاضطر لتلبية الشروط التي فرضها «بيبرس» .

وتبرز هذه النماذج –وهي قليل من كثير– استخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر لإقناع الصليبيين –قادتهم ومقاتليهم– بعدم جدوى مقاومتهم ، وأنه من المحال الوصول إلى أهدافهم ، وقد انتقلت هذه القناعة إلى الغرب بحيث لم يعد هناك بين الملوك والأمراء مَن يعتقد بضرورة استمرار المشروع الصليبي فتخلى الجميع عنه. ولعل الظاهرة المميزة هي البدء بتكوين هذه القناعات على مسرح الأعمال القتالية، فحروب الاستنزاف والتدمير المستمر لقوات الصليبيين قد حول الإمارات القائمة إلى عبء ثقيل أرهق إمارات الغرب وممالكها .

وهكذا لم تكن أعمال التطويق والالتفاف العميق وضرب

المؤخرات على مستوى العمليات سوى الوسيلة لإقناع قادة العمليات بفشلهم، ثم تطوير هذا المفهوم على مستوى السياسة الاستراتيجية وإقناع أصحاب المشروع الصليبي ذاته بفشل مشروعهم. وقد جاء فشل المغول – التتار – في «عين جالوت» برهاناً حاسماً على فشل كل الوسائل المتاحة للقضاء على المسلمين، مما ساعد قادة المسلمين على تطوير صراعهم العسكري والسياسي. وكان النصر في المعركة –باستمرار– هو الوسيلة الوحيدة لبناء القناعات كلها. وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على أن هذه الاستراتيجية لا زالت تحتفظ بكل خصائصها ومميزاتها في كل الحروب التقليدية.

٢– الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة :

لقد انطلقت الحروب المضادة للحروب الصليبية من قاعدة قوية ومأمونة وهي قاعدة **«الوحدة السياسية للمسلمين» ووحدة العمل** – أو **وحدة القيادة (على مستوى العمليات)** ولقد تعرضت هذه الوحدة للتمزق في بعض الأحيان، وجابهت مآزق صعبة في أحيان أخرى. وبقي الاتفاق أقوى من الخلاف، فخرج جيش مصر باستمرار لخوض معاركه فوق أرض الشام (في عين جالوت– كما في حطين من قبل، وكما في تحرير أرمينيا وأنطاكية من بعد) وخرج جيش الشام في مرات كثيرة لخوض الصراع فوق أرض النيل (**كما حدث عندما قام الفرنج بالهجوم على مصر واحتلوا دمياط**). وكان «ريتشارد» قلب الأسد هو الذي أدرك قوة هذه القاعدة – ولعله أول مَن عرف ذلك – فنصح بتوجيه الحملات ضد مصر

التي لم تنجح الإمارات الصليبية في عزلها عن الشام، وذلك لضرب أحد طرفي القاعدة فتضعف القاعدة بكاملها. ولم تنجح كل المحاولات لإضعاف الروابط القائمة بين مسلمي المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي على طرفي القارتين الآسيوية والأفريقية. ولم تكن قوة هذه القاعدة بما توافر لها من قدرات مادية – بشرية وقتالية – بقدر ما كانت قوتها في تنسيق الجهود المتوافرة وفي توجيه هذه الجهود نحو الهدف الواحد. وهكذا، فلم يكن الحرص على توحيد القاعدة وضمان تماسكها هدفاً في حد ذاته وإنما كان وسيلة لتحقيق الهدف وهو مجابهة التحديات المفروضة على ديار الإسلام ، وهذا ما كان يدفع المسلمين على مجابهة كل انحراف بقسوة. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن قوة القاعدة كانت بما توافر للمدينتين الخالدتين القاهرة ودمشق من طبقة مؤمنة صلبة فرضت ذاتها على الأحداث ، وهذا ما كان يحمل القادة والحكام على التماس الدعم من (جماهير المسلمين) وكانت الجماهير دائماً على مستوى الوعي المطلوب وعلى مستوى المسؤولية التاريخية .

لم تكن قوة القاهرة ودمشق في تحصيناتهما ، كما لم تكن بقدرتهما البشرية وإمكاناتهما القتالية ، ولكن قوتهما بقيت أبداً في صمودهما وعمق الإيمان فيهما مما ساعدهما على العمل المشترك ، وأعاق الفرنج من النيل منهما أو الوصول اليهما ، وكان في ذلك نصرهما – على ما أريد لهما وهو نصر على الذات وعلى الآخرين .

٣- بناء المجتمع وإعادة التنظيم :

تتطلب كل معركة – بل كل عمل من أعمال الحياة – إعادة التنظيم من أجل معالجة نقاط الضعف السابقة والاستعداد لمرحلة جديدة من مراحل الصراع والجهاد. ومن الواضح أن كل مرحلة من مراحل الصراع تطلبت نوعاً جديداً من الأهداف المرحلية وإيجاد طرائق العمل المناسبة لتلبية متطلبات الأهداف المرحلية. وكان بناء المجتمع وإعادة التنظيم يشمل عملين متكاملين – العمل على الصعيد الداخلي والعمل على الصعيد الخارجي، وإذا كان هدف العمل الداخلي هو تحقيق مزيد من التلاحم فقد كان هدف العمل الخارجي مجابهة المخططات الخارجية بما هو مناسب لها .

وكان من الطبيعي في إطار الحرب طويلة الأمد أن تسير الحياة بصورة عادية، فقوافل التجارة والأعمال الصناعية وزراعة الأرض كانت مستمرة حتى في أثناء المعارك . وكان العدوان على أحد هذه المرافق كافياً لتجدد الاشتباكات واستئناف المعارك، ذلك أنه كان من المحال على المسلمين الاستمرار في الحرب إن لم تتوافر لهم الإمكانات الضرورية لمتطلبات الحرب وزيادة القدرة الذاتية. وهكذا تكوّن ما يطلق عليه حديثاً اسم **«اقتصاد الحرب»** .

وقد حاول الصليبيون في مرات كثيرة تركيز الجهد لتدمير هذا الاقتصاد: « الاستيلاء على القوافل التجارية ونصب الكمائن لها والإغارة على الحقول وإحراقها والتمسك بالأسرى من الحرفيين المهرة من الصناع» وقد عرف قادة المسلمين تأثير ذلك على إضعاف

القدرات الذاتية فركزوا لردع كل عدوان بعدوان أشد ضراوة وأشد عنفاً مما يضمن تحقيق هدف مزدوج أوله الحرص على الروح المعنوية للمسلمين والثاني دعم القدرة الذاتية .

وإذا كان باستطاعة الصليبيين الاعتماد على مواردهم الكثيرة –القادمة من وراء البحار– فإنه لم يكن باستطاعة المسلمين الاعتماد في حربهم إلا على قدرتهم الذاتية ، ومن هنا تظهر أهمية إعادة التنظيم المستمر للقدرات والموارد. وقد عمل المغول بصورة خاصة على تركيز كل الجهد لتدمير القدرات الاقتصادية وإبادة الحياة في بلاد المسلمين ، ولم يلبثوا أن شعروا بخطئهم ، فحاولوا إعادة التنظيم على أسس عمل المسلمين، ولكن الزمن تجاوزهم بعد معركة «عين جالوت» فوقعوا ضحية ما ارتكبوه من جرائم .

٤ً– وضوح الهدف :

عندما قاد «المظفر قطز» جيش المسلمين، ونزل بأرباض عكا، أقام الفرنج حفلات لقادة المسلمين وأمرائهم، وكان بين المدعوين «بيبرس» الذي اقترح على «قطز» القيام بهجوم مباغت للإستيلاء على المدينة بعد أن لمس ضعف الحامية فيها، ولكن «المظفر قطز» رفض الاقتراح. ولم يحاول الاشتباك مع الفرنج أو استثارتهم طالما أنه لم يحسم المعركة مع المغول .

وعندما فرغ «بيبرس» من إعادة التنظيم في مصر ، انطلق بالمسلمين للانتقام من أولئك الذين تعاونوا مع المغول ، فعمل على تدمير إمارة الأرمن «قليقية» و «أنطاكية» . وعندما أدرك

«بيبرس» أن المغول يستعدون لغزوة جديدة، عقد صلحاً مع عكا حتى يتفرغ لقتال المغول .

وعندما قاد الأخوان الأيوبيان «المعظم» و«الأشرف» قواتهما من جيشي دمشق وحلب لدعم أخيهما «الكامل» في مصر كانا يعرفان أن الفرنج في الشام لا يستطيعون فتح جبهة ثانية، وعندما ظهر احتمال وصول قوات صليبية جديدة إلى فلسطين عمل الأخوان على التوجه نحو فلسطين لتدمير حدود إمارات الفرنج وبعض المواقع مما أضعف موقف القوات الصليبية في مصر .

وتظهر هذه الأمثولات أن الهدف المرحلي كان واضحاً تماماً بقدر وضوح الهدف العام . وإذا كان هدف المسلمين منذ بداية الحروب الصليبية هو تحرير بلادهم من غزوات الفرنج، فقد كان الهدف المرحلي هو تحقيق الانتصار في كل معركة وحشد القوى والوسائط الضرورية للوصول إلى الهدف. ولقد كان سلوك القادة جميعهم وفي مختلف الظروف واحداً وهو الالتزام بانجاز الهدف المرحلي في إطار الهدف العام –أو الهدف النهائي– وتبقى الظاهرة المثيرة هي المعرفة الدقيقة لما كان يحدث في أفق الحرب من تطورات سواء على مستوى العمليات (داخل الإمارات الصليبية) أو على مستوى الحرب (بين قادة أوروبا وأمرائها) مما كان يساعد أمراء المسلمين على وضع المخططات المناسبة لمجابهة متطلبات كل مرحلة . والظاهرة المثيرة الثانية هي وضوح الهدف على مستوى القيادات بمثل وضوحه على مستوى قاعدة المسلمين المجاهدين في سبيل الله .

والشواهد كثيرة، منها موقف دمشق وأئمة المسلمين من إعادة تسليم القدس للصليبيين - على نحو ما سبق ذكره - ودفع قادة المسلمين للتعاون المشترك ضد العدو المشترك . وليست وساطة الخليفة العباسي (المستنصر) بين أمراء الشام ومصر لإحلال الصلح محل الخصام من أجل مجابهة خطر المغول - التتار - سوى نتيجة لوضوح الهدف ، وإدراك خطورة الموقف وما يحمله من تهديد مصيري لكل جماهير المسلمين فوق أرض العرب المسلمين .

٥ - الحرص على المسلمين :

وقعت على كاهل المسلمين في ظروف الحروب الصليبية أعباء تزيد على كل ما يمكن تصوره ، فقد كان على جمهور المسلمين المحافظة على الاستعداد القتالي باستمرار ، وحمل السلاح لرد العدوان ، وكان على جمهور المسلمين أيضاً بناء مجتمعه باستمرار للمحافظة على قدرته المادية وروحه المعنوية في أشرس حرب عرفها التاريخ وأشدها ضراوة ووحشية . وكان خطر التدمير والإبادة هو الخطر الجاثم باستمرار . ولم يكن هـذا الخطر يتهدد أمراء المسلمين وحكامهم بقدر ما يتهدد القاعدة الصلبة للمسلمين . وهذا ما يفسر أعمال الإبادة المادية والتصفية الجسدية التي مارسها الفرنج من قبل وتابعها المغول من بعد . ويكون من الطبيعي ظهور حرص المسلمين على حشد الطاقات وتوفير الموارد لدعم أمرائهم وحكامهم وحرص قادة المسلمين على ضمان الأمن والدفاع عن المسلمين .

والشواهد كثيرة ، فعندما حدث الخلاف بين أمراء الأيوبيين

تصدى «الكامل» لرأب الصدع حتى لا يستنزف المسلمون إمكاناتهم في تحول الصراع من (صراع المسلمين مع أعدائهم) إلى صراع المسلمين بعضهم مع بعض . وعندما كانت تتم المفاوضات بين المسلمين والفرنج كان أمراء المسلمين يحرصون باستمرار على تحرير الأسرى . فإذا لم يتم الوصول إلى هذا الهدف كان يظهر أنه من المحال الوصول إلى معاهدة أو اتفاق مما كان يرغم قادة الفرنج في كثير من المناسبات على إطلاق سراح أسرى المسلمين .

ولقد أدرك أمراء الفرنج وملوكهم مع تقدم الصراع وتطوره أهمية عامل (القدرة البشرية) فحاولوا استخدام أسرى المسلمين لتلبية متطلبات الصليبيين وتأمين خدماتهم وتكليفهم بأعمال الزراعة والصناعة . وتزايدت هذه الحاجة مع نضوب الموارد الغربية، ومع تناقص إمكانات الدعم، مما كان يفرض على الإمارات الصليبية زيادة اعتمادها على أسرى المسلمين لتأمين متطلبات العمل وتفريغ الفرنج لأعمال الحرب فقط .

ومقابل ذلك لجأ المسلمون لهذه الوسيلة ذاتها ، فأخذوا في استخدام أسرى الصليبيين لأعمال الزراعة (وبصورة خاصة في مصر) إلا أن أمراء المسلمين وقادتهم كانوا أكثر حرصاً على (عنصر المسلمين) وأكثر تشدداً في (تحرير الأسرى) بالرغم من أن أعداد الأسرى تحت قبضة المسلمين كان أكبر دائماً من أسرى المسلمين (الذين كانوا يفضلون الموت أو النزوح إلى بلاد المسلمين الأخرى من الخضوع للفرنج) ويعود سبب حرص قادة المسلمين

على المسلمين من أجل توفير القدرة القتالية من جهة ومن أجل المحافظة على الروح المعنوية للمسلمين من ناحية أخرى . ويصبح من السهل تفسير الغضب الذي كان يهيمن على قادة المسلمين عندما يتعرض المسلمون للهجمات الغادرة مما كان يدفعهم لقيادة الأعمال الانتقامية، والثأر لشهداء المسلمين .

٦ً- استراتيجية الحرب التشتيتية :

لقد نظم الصليبيون إماراتهم بصورة مستقلة فكانت هناك (مملكة بيت المقدس ومملكة طرابلس وأنطاكية وأرمينيا) وإلى جانب هذه الممالك كانت هناك إمارات مستقلة أيضاً (مثل إمارة صيدا وإمارة صور وإمارة الكرك وإمارة اللاذقية) وهناك أيضاً القلاع والحصون وهي خاضعة على الأغلب لتنظيمات الفرسان الدينية (الاسبتارية والداوية والتيوتون) وكانت تبعية هذه الإمارات والممالك مختلفة بحسب القوات التي قامت بفتحها من دول الغرب.

ومن الطبيعي أن يكون هناك تناقضات بين الملوك والأمراء والقادة ، وهي تناقضات كثيراً ما أدت إلى صراعات مسلحة (كالصراع المستمر بين البنادقة والجنويين) والصراع بين الطوائف الدينية بعضها مع بعض. وكان لكل مملكة وإمارة وقلعة حاميتها. وفي حالة التعرض للخطر كانت هذه القوى تتعاون فيما بينها (على نحو ما حدث في حطين) وفي مرات كثيرة بعد ذلك وقبله. ومقابل ذلك **كان لكل مدينة من مدن المسلمين قواتها الدفاعية وجيشها الهجومي فكان هناك جيش مصر ، وجيش إمارة الكرك - بعد تحريرها -**

وجيش دمشق ، وجيش حمص ، وجيش حماة ، وجيش حلب وهكذا . وكانت جيوش المسلمين تتعاون فيما بينها لتنسيق أعمالها القتالية .

وكان هدف قادة المسلمين بصورة مستمرة إعاقة كل تنسيق للتعاون بين هذه الممالك والإمارات والقلاع عن طريق تطبيق (استراتيجية الحرب التشتيتية). وكانت هذه الاستراتيجية تأخذ أحياناً شكل اتفاقات أو معاهدات تشمل بعض الممالك الصليبية ولا تشمل بعضها الآخر مما كان يسمح لقادة المسلمين بتركيز الجهد ضد الإمارات أو الممالك أو القلاع التي لا تشملها المعاهدات.

وكانت هذه الحرب التشتيتية تأخذ في بعض الأحيان الأخرى -وعلى مستوى العمليات- فتح جبهة للتخفيف عن جبهة أخرى. ففي سنة ١٢١٩م وبينما كان الملك «الكامل» يقود الحرب ضد الفرنج في مصر، قام الملك «المعظم» بتدمير استحكامات بيت المقدس، وفي سنة ١٢٢٠م وجد «المعظم» أمير دمشق أن أفضل ما يؤديه للمسلمين في مصر من مساعدة هو أن يشن هجوماً على عكا ذاتها . ولم يلبث «المعظم» أن طور أعماله القتالية ، فهاجم قلعة قيسارية ثم توجه إلى قلعة عثليت. وإذ علم فرسان الداوية بذلك، اندفعوا عائدين من دمياط للدفاع عن قلاعهم في فلسطين.

وقد أظهرت مسيرة الأحداث أن حملة المغول لم تكن بمعزل عن التنسيق مع البابا ومع قادة الغرب من جهة ، ومع مراكز القوى الصليبية في الشام .

ويظهر ذلك أهمية الحرب التشتيتية التي طبقها «المظفر قطز» باتفاقه مع حامية مدينة عكا وعزلها عن التعاون مع المغول. وجاءت الحملات التأديبية بالقضاء على أرمينيا وإزالة مملكة أنطاكية في إطار الحرب التشتيتية لمنع كل تعاون في المستقبل بين مراكز القوى المضادة للعالم الإسلامي. وقد أخذت الحرب التشتيتية على مسرح العمليات أيضاً، شكلاً معروفاً للمسلمين، وهو الهجوم على عدد من مواقع الفرنج في وقت واحد. أو التحرك بسرعة من موقع إلى موقع آخر، مما كان يعيق كل تعاون بين قوى الفرنج. فإذا ما نجح الفرنج في تجميع قواتهم فإن قوات المسلمين غالباً ما كانت تتوجه إلى المملكة والإمارة التي تزعمت التجمع أثناء غياب حاميتها. وهكذا فبينما كانت قوات التجمع تسير نحو موقع من مواقع المسلمين تكون قوات المسلمين قد وجهت تهديدها لأكثر العقد أهمية وأخطرها مما كان يمزق التحالف، ويصرف قوات الفرنج للانشغال بنفسها.

ويمكن في إطار الحروب التشتيتية الاشارة إلى جهد «بيبرس» للتحالف مع الخان «بركة» زعيم القبائل الذهبية المسلمة من أجل مجابهة المغول الذين كان يتزعمهم «أباقا» (في سنة ١٢٦٦م)، وأفاد «بيبرس» من ذلك فقاد جيشه للهجوم على عكا وإمارات الفرنج وقلاعهم في جنوب الشام مع توجيه جيش آخر بقيادة «قلاوون» نحو الشمال للتعاون مع جيش حمص، الذي كان يقوده «المنصور» وذلك للاغارة على إمارات الفرنج في شمال الشام والهجوم على قليقية وتدمير المملكة الأرمنية.

٧ – استراتيجية الهجمات الوقائية :

لم تكن هناك استراتيجية ثابتة وصلبة تخضع لها كل عمليات الحروب الصليبية. وإنما هناك قدر كبير من المرونة التي تستجيب لمختلف المواقف، وإذا كان بالمستطاع تمييز المرحلة السابقة لمعركة حطين بأعمال الردع والردع المضاد فإن بالإمكان تمييز الأعمال القتالية في معركة عين جالوت وما سبقها وما تبعها بالهجمات الوقائية . (ولم تكن عين جالوت ذاتها سوى هجوماً وقائياً هدفه إبعاد خطر المغول عن مصر وعدم السماح لهم بالاقتراب منها) وفي هذا الإطار ذاته تم تنفيذ الأعمال القتالية ضد قوات الفرنج الذين كانوا يحاولون القيام بهجمات مباغتة كلما وصلتهم قوات دعم جديدة (مثل حملة ولدَي ملك أراغون سنة ١٢٦٩م. وحملة القوات الإنكليزية بقيادة ولي عهد إنكلترا الأمير «ادوارد» في سنة ١٢٧١م). كما أن هجوم الظاهر «بيبرس» في بلاد الأناضول سنة ١٢٧٧م لم يكن أكثر من هجوم وقائي هدفه توجيه جهد المغول نحو هذه المنطقة ووقاية بلاد المسلمين في الشام من هجمات جديدة . ولقد كان (هدف التحرير) في قلب استراتيجية الهجمات الوقائية . ومن هنا فقد كانت هذه الاستراتيجية مركبة وليست بسيطة تحقق هدفاً مزدوجاً، الأول منع أعداء المسلمين–الفرنج والتتار– من تصعيد أعمالهم العدوانية على بلاد المسلمين، وانتزاع ما يمكن انتزاعه من قلاع ومدن في إطار التحرير الزاحف .

ويمكن في هذا المجال الإشارة إلى جهد البحرية المصرية ومحاولاتها

المستمرة لاعتراض سفن الإفرنج كوسيلة في جملة الوسائل التطبيقية لاستراتيجية الهجمات الوقـائية . إذ إن تدمير القوات في البحر كان نوعاً من التدابير الوقائية لإضعاف الفرنج . وكذلك الأمر بالنسبة لإغارات القوات البحرية المصرية على قبرص التي تحولت أثناء الحروب الصليبية إلى قاعدة متقدمة لحشد قوات الإفرنج .

قد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أن أمراء الصليبيين وقادتهم قد طبقوا هذه الاستراتيجيات في ظروف متباينة ولكن مهـارة الصليبيين تجلت بصورة أفضل في طرائقهم التعبوية -التكتيكية- كتنظيم أعمال الحصار والدفاع عن الحصون والقيام بالإغارات في حين أظهر قـادة المسلمين تفوقاً واضحاً في أفق السياسة الاستراتيجية وفي إدارة الحرب على مستوى العمليات مما ضمن للمسلمين الشروط المناسبة لتحقيق أهدافهم النهائية .

ب – في مبادىء الحرب

١ً – المبـاغتة :

وصل «المظفر قطز» إلى «عين جالوت» قبل وصول قوات المغول بيوم واحد . فعمل على إخفاء قواته في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها «بيبرس». ووقع «كتبغا» في الفخ... ولم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة. وبعد عين جالوت بخمس سنوات تقريباً خرج «بيبرس» من مصر على رأس جيش كثيف . وتظاهر بالتلهي في حملة صيد في التلال الواقعة وراء «أرسوف» ثم ظهر فجأة أمام «قيسارية» فسقطت

المدينة على الفور . وفي السنة التالية (سنة ١٢٦٦ م = ٦٦٥ هـ) قام «بيبرس» بتظاهرة أمام حصن «مونتفورت» ثم زحف فجأة على «صفد»... وفي السنة التالية أيضاً ظهر «بيبرس» مرة أخرى أمام عكا. وإذ رفع «بيبرس» الرايات التي سبق أن استولى عليها من الداوية والاسبتارية ، استطاع أن يمضي رأساً إلى أسوار عكا قبل أن تنكشف الخدعة... وتلك هي بعض الشواهد على حرص قادة المسلمين لتحقيق المباغتة ، ومن الواضح أن المباغتة عند قادة المسلمين لم تكن مباغتة بسيطة (زمنية أو مكانية) وإنما كانت مباغتة معقدة تأخذ شكل مباغتة استراتيجية أو مباغتة عمليات. **وقد أدت المباغتة في «عين جالوت» إلى تطويق جيش المغول بكامله وتدميره تدميراً شبه كامل** . كما أدت في مناسبات مختلفة إلى استسلام قوات العدو وتخليها عن مواقعها . وكان «الظاهر بيبرس» - بصورة خاصة - يحرص على تحقيق المباغتة من خلال ما يمكن تسميته بالمناورة الخداعية . والتظاهر بممارسة عمل أو الاتجاه إلى مكان معين ثم تغيير طبيعة العمل أو الاتجاه إلى الهدف مما كان يضمن تحقيق المباغتة في مسرح العمليات .

وفي مناسبات مختلفة استخدمت المناورة الخداعية باستخدام أعلام العدو وراياته ووسائطه ، ففي سنة ١٢٤٤م = ٦٤٢هـ قام فرسان الخوارزمية بالهجوم على بيت المقدس ، وغادرها حوالي ستة آلاف من فرسان الصليبيين ورجالهم ونسائهم وأولادهم وتركوها للخوارزمية ، وبينما كان المسيحيون يتحركون على

الطريق إلى يافا، تطلعت جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة ، وإذ اعتقدوا أن نجدة قد وصلت إلى بيت المقدس، أصر عدد كبير من الفرسان على الرجوع إلى المدينة ، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة ، فهلك نحو ألفين منهم» وقد لجأ «الظاهر بيبرس» إلى استخدام هذه الوسيلة ذاتها لتحقيق المباغتة .

وفي كل الأحوال بقيت المباغتة وسيلة المسلمين للتغلب على تفوق العدو العددي، واستنزاف قدرته البشرية بصورة مستمرة مما مهد للتحولات الحاسمة في مسيرة الصراع .

٢ً– أمن العمل :

تبقى وسيلة المسلمين (قـــادة ومقاتلين) في تحقيق أهدافهم المرحلية هي الحرص المستمر على ضمـــان مبدأ : «أمن العمل» . وكان تحقيق هذا المبدأ يفرض على قـــادة المسلمين الحصول على المعلومات من المصادر المختلفة (استطلاع القادة الشخصي وتنظيم شبكات الجاسوسية في وسط قيادات العدو . والتوسع الكبير في تنظيم مفارز الاستطلاع . واتخاذ تدابير الحمـــاية لوقاية القوات وحرمان العدو من مباغتتها ...) والشواهد المتوافرة كثيرة . ولكن هناك نقطة حاسمة وأساسية برزت أهميتها في «عين جالوت» فقد كان «المظفر قطز» يتابع تحرك خصمه «كتبغا» بدقة وبصورة مستمرة . في حين كان قائد المغول يقود قواته إلى المعركة وهو يجهل كل شيء تقريباً . وكان العامل الأساسي في ذلك هو

حرص المسلمين على إرسال المعلومات المستمرة للقائد «قطز»، والشعور العدائي للمغول والذي حرمهم من التعاون مع العناصر التي تضمن إمدادهم بالمعلومات . وقد نجح المغول في آسيا بسبب وجود عناصر كثيرة من المغول – التتار – التي وصل بعضها إلى قلب البلاط العباسي. في حين بقي العنصر العربي المسلم هو الغالب في بلاد الشام، وكان هـذا العنصر لا يقبل التساهل في قضيته ولا يرضى بالتعاون مع أعداء الدين – بحسب كل الشواهد المتوافرة – ولقد كان شعور السكان العدائي هو أفضل وسائل أمن العمل لقوات المسلمين سواء في الصراع مع التتار أو في الصراع مع الفرنج من قبل ومن بعد .

وتظهر متابعة الصراع السياسي بين قادة المسلمين وقادة الفرنج أن قادة المسلمين كانوا بصورة عامة أكثر معرفة بالموقف الداخلي للإفرنج مما كان يعرفه قادة الفرنج عن المسلمين. وكان قادة المسلمين أيضاً يحرصون على إخفاء مشاريعهم وإحاطتهم بنطاق من السرية لضمان (أمن العمل) . وقد اشتهر عن «صلاح الدين» ومن بعده «المظفر قطز» وكذلك «الظاهر بيبرس» التزامهم جميعاً (**بالسرعة والسرية فيما يتخذونه من قرارات**) وذلك هو الشرط الأساسي لضمان أمن العمل . وإذا مـا تم الانتقال بعد ذلك إلى أفق مسرح العمليات، فستظهر تدابير (أمن العمل) على شكل تنظيم دفاعي ثابت . وعلى سبيل المثال، فعندما انسحب جيش مصر في خريف سنة ١٢٦٦م. حاولت الطوائف الدينية العسكرية التعاون مـع القوات الفرنسية لشن هجوم على الجليل، ولكن

حامية صفد نصبت كميناً لمقدمة القوات الصليبية في ٢٨ تشرين الأول –اكتوبر– ودمرتها ، كما قامت قوات العرب بالهجوم على معسكر الفرنج . وفي سنة ١٢٦٩م ، قـام الفرنج بتوجيه قوة تحت قيـادة ولدَي ملك أراغون (ملك البرتغال – برشلونة) ولكن هذه القوة لم تكد تغادر عكا حتى وقعت على الفور في الكمين الذي نصبه «بيبرس» ولم يبق على قيد الحياة – من أصل القوة – إلا عدد بالغ القلة .

٣ً– القدرة الحركية :

لقد كانت جيوش المسلمين تعتمد على قدرتها الحركية العالية لنقل المعارك بصورة مستمرة إلى حدود الأرض المحتلة ولتحميل الإمارات الصليبية أعباء الحرب . وفي معركة «عين جالوت» لم ينتظر جيش مصر وصول قوات المغول (رغم ما في ذلك من ميزة لإطالة خطوط مواصلات الغزاة وإبعادهم عـــن قواعدهم وإرغامهم على عبور سيناء مع ما يتضمنه ذلك من إرهاق لقوات المغول) وفضّل «المظفر قطز» الإفادة من القدرة الحركية العالية لقوات المسلمين من أجل نقل المعركة بعيداً عن أرض مصر . ولقد تميزت قوات المغول أيضاً بقدرتها الحركية العالية وليست قضية المسير عبر أكثر من أربعة آلاف ميل هي بالمسيرة السهلة بالنسبة لقوات ضخمة تقوم بأعمال قتالية عبر مسيرتهـا الطويلة والشاقة . وقد يكون من الصعب تقويم القدرة الحركية للطرفين المتصارعين من خلال معركة «عين جالوت» وحدها . وإنما يتطلب

ذلك إجراء تحليل شامل لمعطيات حرب الحركة لدى المغول ولدى العرب المسلمين . ولعل أبرز الفوارق هي اعتماد العرب المسلمين على القدرة الحركية وتطويرها في البر والبحر، في حين كانت القدرة الحركية للمغول قدرة برية – قارية فقط – وهذا مما ساعد المسلمين بعد ذلك على مجابهة الغزوات الصليبية القادمة من وراء البحار بنفس القدرة التي ساعدتهم على مجابهة غزوة المغول – التتار – .

وتظهر عملية تحرير دمياط في الغزوات الصليبية المتتالية أهمية القدرة البحرية وما تضمنته من تطوير للقدرة الحركية. وتظهر أهمية القدرة الحركية بعد ذلك في تأمين تنسيق التعاون بين جيوش مصر والشام وحمص وحماة وحلب. فقد كان على هذه الجيوش الانتقال باستمرار من مصر إلى الشام وبالعكس مع تلبية متطلبات العمليات للتحرك إلى أقصى الشمال حيث الإمارات الصليبية في قليقية –أرمينية– وأنطاكية ثم الانتقال إلى أقصى الجنوب حيث إمارات الفرنج . وضمنت القدرة الحركية أيضاً إنجاز الواجبات بسرعة ومجابهة المواقف الطارئة بمرونة وتطبيق مبادىء الحرب بكفاءة عالية. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إنه كان من المحال على قادة المسلمين تحقيق المباغتة أو ضمان (أمن العمل) لولا ما توافر لقوات المسلمين من قدرة حركية عالية. وهنا يظهر الفرق أيضاً في القدرة الحركية لتطبيق مبادىء الحرب في حين اعتمد المغول على (القوة المدمرة الطاغية) لتحقيق هدف الحرب وهذا لا يعني تجرد حرب الحركة لدى المغول من مبادىء

الحرب ، وإنما يعني تقنين حرب الحركة لدى المسلمين وتطبيق مبادىء الحرب بصورة أفضل لدى المسلمين مما كان عليه الأمر لدى المغول .

٤ً- المبادأة واستخدام القوات الهجومية :

يظهر العرض السابق لمسيرة الأحداث حرص قادة المسلمين - من ورثة صلاح الدين والمماليك - على الإمساك بالمبادأة، وعدم السماح للأعداء بفرض المواقف . ولم يكن تطوير القدرة الحركية والحرص على المباغتة سوى بعض الوسائل للمحافظة على المبادأة. وهنا تظهر أهمية نقاط التحول في مسيرة الصراع . فقد استطاع قادة الفرنج الإمساك بالمبادأة - على الأغلب - قبل «حطين» - ثم تناوب قادة المسلمين وقادة الفرنج الإمساك بالمبادأة التي انتقلت بصورة شبه كاملة إلى أيدي قادة العرب المسلمين في «عين جالوت» وبعدها . وذلك لا يعني غياب المبادأة قبل «صلاح الدين» وإنما كانت هذه المبادأة بمثابة رد فعل على ما يقوم به قادة الفرنج من تطوير للصراع ، وكان استخدام القوات الهجومية في إطار - الدفاع الاستراتيجي - على نحو ما سبق ذكره . أما المبادأة واستخدام القوات الهجومية فقد تحول بعد «حطين» في إطار الانتقال من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي .

واعتباراً من هذه المرحلة أخذت المبادأة كل أبعادها بحيث لم يعد باستطاعة الفرنج أو المغول فرض المواقف على المسلمين . وفي كل الأحوال، لم تكن مبادأة عسكرية فحسب بقدر ما كانت

مبادأة شاملة في إطار السياسة الاستراتيجية . فقد استطاع قادة المسلمين فرض المعاهدات والاتفاقات وإجراء التحركات السياسية بما يتوافق مع أهداف المسلمين ووفقاً لمبادأة قادتهم . وقد كان رد «المظفر قطز» على سفارة «هولاكو» - وإعدام «المظفر قطز» لسفير «هولاكو» - هو إعلان للحرب . ولكن «المظفر قطز» لم يترك للمغول فرصة فرض المبادأة ، وإنما أمسك بالمبادأة بيديه فنظم قواته وقادها إلى ميدان المعركة وفرض ميدان القتال المناسب له .

وكان إمساك «المظفر قطز» بالمبادأة هو العامل الرئيسي الذي ساعد على تحقيق المباغتة ، وكسب المعركة في النهاية . ولقد كان احتفاظ قادة المسلمين بالمبادأة هو العامل الأساسي الذي ساعدهم على تطوير أعمالهم القتالية وتصعيدها باستمرار بعد نقطتي التحول في حطين وعين جالوت . والإفادة من ذلك خلق مواقف جديدة لا يستطيع أعداء المسلمين مجابهتها .

وبكلمة أكثر وضوحاً ، كان قادة الفرنج هم الذين يمسكون المبادأة السياسية والمبادأة العسكرية قبل حطين - تاركين لقادة المسلمين العمل على أساس رد الفعل المحسوب . أما بعد حطين ، وبوضوح أكثر بعد عين جالوت ، فقد أمسك قادة المسلمين بالمبادأة وأرغموا أعداءهم من مغول وفرنج على إدارة حربهم في إطار ردود الفعل . أو بالاصطلاح السهل ، كان المسلمون يرقصون على الناي الذي تحرك أصواته أصابع الفرنج ثم المغول ثم أصبح هؤلاء يرقصون على أنغام الناي الذي تعبث به أصابع المسلمين .

٥ً – مبدأ الاقتصاد بالقوى:

يكسب المعركة مَن يحتفظ بآخر طلقة وآخر مقاتل. ذلك هو مبدأ معروف – ويتزايد هذا المبدأ أهمية في إطار الحرب طويلة الأمد – وفي مناخ حروب الاستنزاف . وقد عرف قادة المسلمين في الحروب الصليبية أهميةَ (القدرة البشرية) ودور (اقتصاد الحرب) لضمان التوازن بين القوى والوسائط وحشد ما تتطلبه الحرب من وقود بما يتناسب وحجم هذه الحرب . وتظهر مسيرة الأحداث حرص قادة المسلمين باستمرار على زج ما هو ضروري من القوى والوسائط مع الاحتفاظ بالقدرة الكامنة لضمان توافر القوى من أجل الاستمرار في الصراع .

وهكذا ، فقد كان جهد الفرنج لإلقاء (أثقال جديدة) في ميادين الصراع يقابل من قادة المسلمين بإلقاء أوزان أو أثقال معاكسة للمحافظة على التوازن في القوى ولكن الاحتفاظ بالقوى من خلال تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى لم يكن هو الوسيلة الوحيدة للمحافظة على التوازن وإنما هو إحداها . وكانت الوسيلة الأكثر فاعلية –لتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى– هي استنزاف قدرات العدو وإضعافها عن طريق إدارة الحرب بكفاءة (كالهجوم القوي على النقاط الضعيفة وتجنب الخوض في معارك باهظة الثمن) . ويظهر ذلك بوضوح في عمليات كثيرة تم خلالها تجنب الهجوم على المواقع المحصنة أو الإغارة على المواقع الهامة والتي تتوفر فيها إمكانات النصر بما يعادل ثمن الحرب .

٦ً– المحافظة على الهدف :

لم تكن الهجمة الصليبية مجرد حملة عسكرية وإنما كانت حرباً ضد (الفكر الإسلامي والدين الإسلامي) وكانت حملة المغول عاصفة مدمرة للوجود الإسلامي . ولقد بذلت جهود كثيرة على امتداد صفحة الحروب الصليبية الطويلة لحرف المسلمين عن أهدافهم ، وإبعادهم عن مواقع صمودهم ، ولكن عناد المسلمين وإيمانهم بقي ثابتاً ولم يتزعزع . وكما حاول قادة الصليبيين حرف الجماهير من المسلمين عن أهدافهم فقد حاولوا حرف قادة المسلمين عن أهدافهم العسكرية . ولكن هذه المحاولات لم تحقق بدورها أي نجاح . يظهر ذلك بوضوح في عمليات الصراع السياسي التي تركزت على تحقيق مكاسب بالطرائق الدبلوماسية عجزت عن تحقيقها القوات العسكرية . ويظهر ذلك في محاولات اجتذاب قادة المسلمين إلى معارك في غير صالحهم ، فكان هؤلاء القادة يمضون إلى أهدافهم وفقاً لمبادأتهم ، وبحسب ما تفرضه مصلحة المسلمين .

وتبرز هنا العلاقة الجدلية التي كانت قائمة بين جماهير المسلمين وقادتهم . فكان التزام جماهير المسلمين بأهدافهم يدعم مواقف قادتهم في المحافظة على الهدف، بقدر ما كان تمسك القادة بالهدف والمحافظة عليه يدعم إيمان الجماهير ويزيد من ثقتها بحتمية انتصارها ووصولها إلى هدفها. وكانت الرابطة بين محافظة القادة على الهدف والتزام الجماهير بهذا الهدف أيضاً هي المقياس الصحيح لتقويم القادة وأعمالهم (فدمشق التي فتحت ذراعيها للمظفر قطز بعد عين جالوت)

هي نفسها التي تمردت على «الظاهر بيبرس» في بداية عهده ، ثم منحته الدعم والتأييد وسارت معه حتى نهاية الصراع عندما أظهر التزامه بالمحافظة على الهدف الذي حققه «المظفر قطز» في عين جالوت. وكذلك الأمر بالنسبة لبقية جيوش الشام التي ما أن عرفت بانتصار (المماليك في عين جالوت) حتى منحتهم قيادتها وخضعت لهم من أجل الاستمرار في السير على الطريق نحو الهدف . وقد يكون لقادة المسلمين دورهم الكبير في (المحافظة على الهدف) إلا أن دور جماهير المسلمين يبقى هو العامل الأقوى ، فهو الذي حدد الهدف وهو الذي حافظ عليه ، وحمل القادة على الالتزام به .

٧- المؤخرات والشؤون الادارية :

لم يكن انتصار المسلمين في مصر على قوات الغزو في دمياط والمنصورة سوى نتيجة ضرب مؤخرات العدو وحرمانه من موارده الإدارية . ولم يكن ضعف الصليبيين نتيجة استنزافهم المستمر إلا بسبب ضعف المؤخرات والشؤون الادارية . وقد عرف قادة المسلمين أهمية هذا المبدأ من خلال ممارساتهم فعملوا باستمرار على ضمان أمن المؤخرات ، وتأمين الإمداد الإداري للقوات بشكل مستمر . وتبرز مسيرة الأحداث أن اهتمام القادة باستمرار قد تركز على تكوين احتياطات من القدرة البشرية ومن وسائط القتال لمجابهة احتمالات تطور الصراع .

وقد يذهل القاريء عند متابعة صفحة الصراع في الحرب طويلة الأمد من ظاهرة توافر قوات احتياطية جاهزة للعمل باستمرار .

ولم يكن ذلك سوى نتيجة الجهد الدؤوب للقـادة على اختلافهم بإعداد المؤخرات وضمان الإمداد الإداري . وهكذا ، فقد كان جهد القادة مركزاً في اتجاهين، الاتجاه الأول هو حماية مؤخرات المسلمين وتأمينها إدارياً . والاتجاه الثـاني هو ضرب مؤخرات العدو وحرمانها من مواردها الإدارية .

وعن هذا الطريق استطاع قادة المسلمين تحطيم التفوق لدى أعدائهم وتحويل ميزان القوى لمصلحتهم باستمرار . وهل اتفاق «المظفر قطز» مع مملكة عكا قبل عين جالوت — سوى اتفاق لحماية مؤخرة قوات المسلمين وضمان الإمداد الإداري للقوات مقـابل حرمان المغول من استخدام هذا المبدأ ؟.

ج – قادة المسلمين وفن القيادة

١ً – العنف في القضاء على أعداء المسلمين :

قد يكون من المناسب هنا التمييز بين حالتين : الحالة الأولى استخدام العنف كعمل انتقامي وكأسلوب ردع على نحو ما فعله المسلمون في معركة عين جالوت وعكا وقليقية وأرمينية — حيث تذكر المصادر الإسلامية الصدمة التي أصابت المسلمين ذاتهم عند وقوع المذبحة القاسية في أعقاب فتح أنطاكية — وكذلك ما حدث في غزو قليقية قبلهـا وإبادة الأرمن . والحالة الثانية استخدام العنف للقضاء على قادة العدو ممن يعملون باستمرار لقيادة الصراع ضد المسلمين والتحريض لحربهم .

الواقع أن ما اشتهر به العرب المسلمون من فضائل حربية ،

وما عرفه التاريخ عنهم من تطبيق رائع لمبادىء الحرب ولأسس السياسة الاستراتيجية التي توازن بدقة بين «غاية السلم» و«هدف الحرب» قد جعل ظاهرة «العنف» في حروب العرب المسلمين مقننة بدقة ومنظمة باحكام ، إلا أن أعمال الإبادة الوحشية التي تميزت بها الحروب الصليبية ، وأعمال القتل الاجماعي والتدمير الشامل التي ميزت حروب المغول التتار قد دفعت المسلمين دفعاً لاستخدام العنف المضاد، غير المقنن، واللجوء إلى أسلوب «الفاعلية المطلقة في الحرب». وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن مشاعر الغضب التي هيمنت على المسلمين لإزالة خلافاتهم في بغداد ، وكذلك الشعور بالحاجة للانتقام والثأر كوسيلة للمحافظة على الروح المعنوية للمسلمين قد وجدت لها مخرجاً في استخدام العنف المضاد. وليس هناك من يستطيع توجيه اللوم للمسلمين إن هم استخدموا «الفاعلية المطلقة للحرب» واستخدموا أيضاً وسيلة الإبادة بعد كل ما تعرضوا له من أعمال الإبادة والقتل الجماعي والتدمير الشامل.

أما الحالة الثانية ، وهي استخدام العنف للقضاء على أعداء الإسلام من القادة ، فتظهر في مناسبات كثيرة ، أبرزها محاولة اغتيال ولي عهد إنكلترا وملكها فيما بعد –ادوارد– الذي أعلن في مناسبات كثيرة أنه سيعود إلى بلاده لتجهيز حملة ضخمة ، فأوعز «الظاهر بيبرس» إلى حلفائه من الإسماعيلية لاغتياله – ولو أنه تبرأ من ذلك عندما لم تنجح المؤامرة في اغتياله، وإنما أصابته بجراح بالغة بقي يعاني منها زمناً طويلاً– وعندما شفي من جراحه غادر الشرق ولم يعد يفكر في العودة إليه أبداً .

وهناك حالات مماثلة نجح فيها الاغتيال السياسي بالقضاء على أكثر قادة الفرنج تطرفاً مما أثار خلافات حول «الإرث» ومزق وحدة الفرنج ، والظاهرة المميزة لمثل هذه الظواهر في استخدام العنف كانت مدروسة بدقة، بحيث أنها كانت تحقق الهدف المطلوب وهو (التطوير المستمر لاستراتيجية الهجوم غير المباشر).

٢ً- التحريض على الجهاد:

لم تكن جموع المجاهدين في سبيل الله في حاجة لما يثير حماستها، كما أنها لم تكن في حاجة لمن يحدد لها واجبها وكان عليها «هي» أن تحدد الواجبات والأهداف على امتداد الصفحة الجغرافية لبلاد الإسلام (من حدود الهضبة الإيرانية شرقاً وحتى أقصى بلاد الأندلس غرباً ومن المحيط الهندي جنوباً حتى القفقاز وأرمينيا شمالاً). ذلك أن هذه الجموع وجدت نفسها وهي معرضة للإبادة والفناء على أيدي الغزاة الذين رفعوا لواء الحرب الصليبية. ولكن بالرغم من ذلك، فقد عمل قادة المسلمين على إثارة الحماسة. وتظهر الأوابد بما ضمته من وثائق التاريخ أن قادة المسلمين لم يقصروا في استثارة جموع المسلمين لمتابعة الجهاد في سبيل الله. ولكن من الملاحظ أن التحريض على الجهاد قد أخذ - في هذه الفترة بالذات - طرائق عملية أبرزها:

١ً- « البحث عن النصر.

٢ً- مقاومة الهجمات بطرائق مختلفة تتناسب مع المواقف.

٣ً- تحديـــد الهدف من التحريض - هدف الحرب »

إلى جانب استنزاف كل الطرائق الممكنة لضمان القدرة على الصمود. وتوفير كل ما هو ضروري لتأمين استمرار الصراع في الحرب طويلة الأمد .

لقد كان البحث عن النصر هو الوسيلة الأولى للقادة من أجل التحريض على الجهاد. فقد مرت على الأمة الإسلامية فترة صعبة – عند بداية الحروب الصليبية – ظهر من خلالها أنه من الصعب مقاومة هذه الهجمة البربرية الوافدة من وراء البحار. ثم أخذت الأمــة الإسلامية في النهوض من ذهول الصدمة – أو المباغتة – لتجد أنها أمام تحد مصيري يرتبط بوجودها ومستقبلها، وأخذت الاستجابة شكل مقاومة انفردت بهـا بعض مراكز القوى (الزنكيون في البداية ثم تبعهم الأيوبيون ثم المماليك) وتركزت هذه المقاومة في عاصمتي الإسلام القاهرة ودمشق. المدينتان الخالدتان اللتان اضطلعتا بأعباء الدفاع عن الإسلام طوال الحروب الصليبية. وأخذت دوائر المقاومة في الاتساع حتى ظهرت نقطة الانعطاف الحاسمة في «حطين» وتبعتها «عين جالوت» لتقرران مستقبل الإسلام لا في بلاد الشام ومصر وإنما في العالم كله .

وخلال هذه الفترة كان البحث عن النصر – مهما كان صغيراً ومحدوداً – هو الوسيلة الأولى لاستثارة الحماسة وتحريض المجاهدين لمتابعة طريق الجهــاد . وقد كان كل نصر يدعم النصر السابق له ويزيد من قدرة الصمود إلى أن أمكن حسم الصراع في النهاية لمصلحة المسلمين .

أما الوسيلة الثانية في مجال التحريض على الجهاد فهي اختيار الطرائق المناسبة لمجابهة المواقف المختلفة . وعلى سبيل المثال، فقد وقفت «القبيلة الذهبية» التي تضم المغول المسلمين وهي عاجزة عن مجابهة المغول «التتار» أو الانتصار للمسلمين – بالرغم من كل معاناتها لما كان يتعرض له المسلمون من ذبح وتقتيل، وعندما تحقق الانتصار في «عين جالوت» استطاعت القبيلة الذهبية أن تضطلع بواجبها سواء عن طريق إغراء المسلمين في صفوف التتار للانسحاب من قوات المغول التتار – أو عن طريق توجيه تهديدها لأنصار المغول من دول الفرنج –الصليبيين– «إمارة أرمينية» . وكانت «رابطة الدين» هي الوسيلة للتحريض على الجهاد ومقاومة مخططات أعداء الدين . وفي هذا المجال أيضاً – فإن الجهد المستمر لتوحيد إمكانات المسلمين – وبصورة خاصة في مصر والشام – لم يكن إلا تحريضاً على الجهاد وتعبيراً عن وحدة المسلمين في اعتقادهم وممارساتهم .

أما الوسيلة الثالثة في مجال التحريض على الجهاد فهي تحديد هدف الحرب والدعوة لها . وكانت الرسائل المتبادلة بين قادة المسلمين تحدد هدف المعركة ، وهي تماثل ما يطلق عليه حديثاً اسم «التوعية – أو نشر الوعي» حيث يطلب إلى جيوش المسلمين التوجه لتنفيذ أعمال مشتركة ، أو القيام بعمليات تساعد على تنسيق الجهد وتنظيم التعاون بين جيوش المسلمين بعضهم مع بعض .

٣ً- الشجاعة في مواجهة الخطر:

لم تكن فترة الحروب الصليبية فترة احتمال لمواجهة الخطر وإنما هي تعايش مع الخطر ذاته، فقد كان الخطر جاثماً على كل صدر ومقيماً بصورة مستمرة، وتظهر مسيرة الأحداث أنه ما من مرة ظهر فيها الخطر على مختلف المستويات حتى ظهرت فضائل المجاهدين في سبيل الله وفي طليعتها «الشجاعة» فعملت على إحباط الخطر والقضاء عليه. وهنا، وعلى مستوى القيادات، يمكن على سبيل المثال تصور موقف «المظفر قطز» وقد وصلته رسالة «هولاكو» التي تطالبه بالخضوع لجبروت المغول وطغيانهم، وكانت جيوش المغول قد اجتاحت العالم الإسلامي في المشرق، ووصلت طلائعها حتى غزة. فهل هناك ما هو أكبر من هذا الخطر؟

لقد كانت لحظة حرجة دون ريب تتطلب أعلى مراحل الشجاعة. وقد برهن «المظفر قطز» على توافر هذه الشجاعة عندما قرر عدم الرد على «هولاكو» وإعدام سفيره إلى القاهرة – وهي وسيلة لم يكن قادة المسلمين يقدمون على استخدامها إلا في ظروف نادرة – وكان نصيب «المظفر قطز» من الشجاعة أكبر عندما انتصر على الذات فرفض إغراء الحصول على نصر سريع بالاستيلاء على عكا –وفقاً لما نصحه به «بيبرس»– وظهرت شجاعته الكبرى يوم وزع قواته في التلال المحيطة بـ «عين جالوت» وأخذ في إدارة الحرب، وفي لحظة من اللحظات أظهر فيها – قائد التتار المغول كتبغا – كل كفاءته القيادية فمزق صفوف

القوات المصرية . وعندها اندفع «المظفر قطز» إلى قلب المعركة، فجمع القوات حوله وأعاد التنظيم بسرعة ، وتابع إدارة المعركة الحاسمة حتى تحقق له النصر .

وتظهر الشجاعة في مواجهة الخطر أيضاً لدى قائد حامية حلب «الشيخ توران شاه» عم «الناصر يوسف» الذي جابه بقوات قليلة جيش «هولاكو» واستمر في المقاومة لمدة أربعة أسابيع بالرغم من سقوط المدينة في قبضة «هولاكو» مما حمل قائد المغول على احترام شجاعة هذا الشيخ والإبقاء على حياته . وإذا ما تم الانتقال من مستويات القادة إلى مستويات جماهير المسلمين فستظهر الشجاعة لدى المجاهدين في «ميافارقين» الذين رفضوا الخضوع لهؤلاء الذين دمروا حاضرة المسلمين في بغداد، رغم معرفتهم بما سيتعرضون له عند هزيمتهم وهو احتمال كان واقعاً بعد كل ما أحرزه المغول من انتصارات في مسيرتهم الطويلة .

وتظهر الشجاعة في مواجهة الخطر أيضاً لدى جماهير «دمشق» الذين أعلنوا ثورتهم على المغول الغزاة الذين احتلوا مدينتهم وأخذوا يتيهون على الإسلام والمسلمين فخراً بسيطرتهم على أقوى قواعد الإسلام . وكانت جماهير دمشق تعرف يقيناً أن الثمن الذي ستدفعه سيكون غالياً بعد ما عرفته من مذابح أبادت أولئك الذين دافعوا عن قلعة دمشق يوم اقتحمتها قوات التتار والصليبيين في موكب واحد . والشواهد بعد ذلك أكثر من أن تحصى، وتبقى الظاهرة المميزة هي أن هذه الشجاعة لم تكن أكثر من امتداد للفضائل الحربية التي حملتها قوات الفتح الإسلامي. فكانت

شجاعة الخلف على مثل ما كانت عليه شجاعة السلف. وكان هؤلاء وأولئك من تلاميذ مدرسة واحدة هي مدرسة الإسلام التي رسمت للمجاهدين في سبيل الله الطريق الصحيح للجهاد وحددت لهم أهدافه .

٤ً– القرارات الصحيحة :

ليس بالمستطاع تقويم صحة القرارات أو خطئها إلا من خلال ما تتضمنه من نتائج وما تحققه من منجزات . وتتزايد صعوبة تقويم القرارات في إطار الظروف المعقدة التي كانت تحيط بالمواقف المختلفة أثناء فترة الحروب الصليبية. وليس بالإمكان انتقاء موقف معين أو مناقشة قرار محدد ، ذلك أن تشابك المواقف يجعل كل قرار مرتبطاً بمجموعة المعطيات المكونة للصراع. وعلى هذا فليس هناك مَن ينكر صحة قرار «صلاح الدين الأيوبي» في حطين سواء في مجال اتخاذ قرار الحرب أو في مجال انتقاء ميدانها أو تحديد إدارة الحرب فيها . وكذلك الأمر بالنسبة لقرار **«المظفر قطز» الذي أدى إلى معركة «عين جالوت»** وهو قرار تطلب بالضرورة اتخاذ مجموعة من القرارات – مثل إقامة اتفاق مع الفرنج، ومثل انتقاء ميدان المعركة وتحديد توقيتها، وبرهنت مسيرة الأحداث على صحة القرارات كلها. ويمكن بعد ذلك جمع الشواهد الكثيرة في مجال إدارة «الظاهر بيبرس» لأمور الحرب – سواء في إقامة التحالفات التي تضمن تركيز الجهد ضد المغول في بعض الأحيان لتنقل هذا الجهد ضد الفرنج في أحوال أخرى – أو في مجال إدارة

الحرب ذاتها في إطار «**التحرير الزاحف**» الذي انطلق من الداخل نحو الساحل فحوّل الممالك الصليبية إلى عدد من المدن المنعزلة والممزقة فوق إطار جغرافي ضيق لا يتجاوز المناطق المحيطة بهذه المدن. وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على أن العامل الأساسي الذي ساعد قادة المسلمين -عموماً- على اتخاذ القرارات الصحيحة هو رؤيتهم الواضحة لأبعاد الصراع وعوامله، ومعرفتهم الدقيقة لما كان يحدث وراء أفق المعركة، ومعلوماتهم الكاملة عما كان يحدث في أفق المعركة ذاته. فكان ذلك يساعدهم على تقويم المواقف المختلفة بصورة صحيحة، بدون خداع في الرؤية وبدون انفعالات بظروف طارئة، وهذا مما كان يؤدي بدوره إلى القرارات الصحيحة.

وهنا يمكن التساؤل: **هل كان قرار «المظفر قطز» في رفض تحدي «هولاكو» هو نتيجة معرفته بما توافر لديه من مصادر القوة مقابل ما استنزفته الحروب من قدرة المغول التتار؟..**

قد يكون ذلك، فالمسيرة الطويلة عبر البلاد الإسلامية قد أضعفت قوة «زخم» هجوم التتار دون ريب. ووصلت بالسيل إلى أسفل المنحدر السهلي، ولكن لم يكن باستطاعة «المظفر قطز» اتخاذ قراره التاريخي يقيناً لولا ما توافرت لديه من معرفة بقدراته الذاتية. وليست القرارات الصحيحة في النهاية سوى نتيجة التقويم الصحيح لمصادر القوة لدى الصديق والعدو. وكان هذا التقويم الصحيح هو العامل فيما اتخذه قادة المسلمين من « **قرارات صحيحة** ».

٥ً – إدارة الحرب وحماية المسلمين المجاهدين في سبيل الله :

لقد كانت الحروب الصليبية منذ بدايتها وحتى نهايتها – بما فيها الحروب ضد التتار المغول – حرب إبادة جسدية وتصفية فكرية –عقائدية– . وقد يكون من الطبيعي –حتى على أساس الفعل ورد الفعل– أن يحرص قادة المسلمين على حماية المجاهدين في سبيل الله واتخاذ كل التدابير الوقائية لإحباط مخططات أعداء المسلمين. وهذا يظهر أهمية المبدأ الذي التزم به قادة المسلمين وهو «**البحث عن النصر**» وإدارة الحرب بكفاءة مع دفع الحد الأدنى من «**ثمن الحرب**» والعمل باستمرار لتحميل أعداء المسلمين «**الثمن الباهظ للحرب**» في إطار الاستنزاف المستمر الذي يؤدي إلى الحسم .

ولقد تحمل المسلمون في البداية ثقل الهجمة الصليبية، ودفعوا ثمن الحرب غالياً. ثم أخذ المسلمون تدريجياً في ممارسة اللعبة ذاتها – إذا صح التعبير – فأخذوا في استخدام الطرائق ذاتها ولكن في حدود مذهبهم العسكري المميز (بطرائق حرب الحركة وبالتطبيق المتكامل لمباديء الحرب) وهنا يظهر تفوق القادة المسلمين .

ويجب الاعتراف هنا أن قادة الصليبيين وقادة التتار كانوا جميعاً على درجة عالية من الكفاءة (**وقد كان كتبغا أكفأ قادة المغول وأقربهم إلى هولاكو**) وهو الذي مهد لتقدم المغول حتى بغداد ثم تولى قيادة المقدمة حتى حلب وتولى إدارة الحرب بعد ذلك في بلاد الشام . فكان انتصار «المظفر قطز» انتصاراً على

أقوى قادة المغول وكان انتصار «بيبرس» بعد ذلك انتصاراً على كبار قادة الفرنج – وأكثرهم خبرة. وكان مقاتلوا الفرنج والمغول من أفضل المقاتلين الـــذين عرفتهم حروب العصور الوسطى، وبصورة خاصة منهم فرسان الطوائف الدينية.

ومن هنا تظهر صعوبة العمل في إدارة الحرب مع تحقيق مبدأ حماية المسلمين المجاهدين في سبيل الله. وهو ما أمكن تحقيقه في معظم المعارك الصليبية.

د – المجاهدون في سبيل الله

١ – الاستعداد الدائم للقتال:

حروب مستمرة على امتداد قرنين من عمر الزمن، وحملات من الغرب والشرق تحمل مختلف الرايات وكلها تسير على قرعات طبول واحدة. وخاض المسلمون حروباً مريرة فوق أرضهم وفي قلب بلادهم، لم يحاولوا في يوم من الأيام التخلي عن أسلحتهم أو الاستسلام لما يريده أعداؤهم منهم. وهذا في حده هــو النموذج الأعلى «للاستعداد الدائم للقتال». وكانت تمرّ على جماهير العرب المسلمين في الشام ومصر فترات تتطلب منهم نوعــاً من المهادنة، ولكن الهدنة أو الاتفاق بقيت محدودة أبداً بزمن معين، كان المسلمون أثناءها يلتقطون أنفاسهم في غمرة الحرب طويلة الأمد وليعاودوا استئناف الاحتكام إلى السلاح وهم أكثر قدرة بإمكاناتهم وأكثر ثقة بأنفسهم وأكثر استعداداً لمتابعة جهادهم. وهذا هو التعبير الصحيح أيضاً عن «الاستعداد الدائم للحرب». أما تطبيق

مبدأ «الاستعداد الدائم للحرب» على مستوى العمليات فيتجلى بإحباط كل محاولات قادة الفرنج لمباغتة المسلمين – وكم من مرة جرّب الفرنج الوصول إلى دمشق بصورة مباغتة أو مهاجمة القاهرة بصورة مفاجئة. فكان المجاهدون في سبيل الله أبـــداً خلف أسلحتهم، لا يسمحون للعدو الغدر بهم أو النيل منهم.

ويظهر الاستعداد الدائم للقتال أيضاً في تلبية جيوش المجاهدين في سبيل الله لأول نداء (للحرب) فمـا إن كانت تطلب القاهرة نجدة جيش دمشق حتى كان هذا الجيش يسرع للوصول إلى هدفه في الوقت المناسب، وما من مرة طلب إلى جيش مصر التوجه إلى بلاد الشام حتى كان هذا الجيش في ذروة استعداده للقتال.

وكان المجاهدون في سبيل الله يخوضون المعارك في إطار «وحدة مسرح العمليات» وفي إطار «الهدف الواحد للحرب»، ولهذا فإن الاستعداد الدائم للقتال لم يكن محدداً في إطار دفع العدوان ضمن منطقة محددة وإنما كان استعداداً لمجابهة العدوان فوق كل أرض من ديار المسلمين.

٢ً– الروح المعنوية العالية:

قــد تحبط الهزائم الروح المعنوية بقدر مـا ترفعها وتعززها الانتصارات، وكانت الحروب الصليبية تناوباً بين الهزائم والانتصارات. وبالرغم من ذلك فالشواهد التاريخية المتوافرة تبرهن على توافر الروح المعنوية العالية لدى المسلمين حــتى وهم يعانون قسوة الاحتلال ووحشية العدوان. ويعود السبب في ذلك

إلى جذوة الإيمان المتقدمة في قلب المؤمنين والتي تضيء لهم الظلمة الخارجية المحيطة بهم ، وتبعث لديهم الأمل بحتمية النصر بالرغم من كل قسوة الظروف المحيطة . ولقد كان المجاهدون في سبيل الله يطلبون دائماً إحدى الحسنيين (**الشهادة أو النصر**) فكان الخلَف على نحو ما كان عليه السلف من الذين أقاموا القواعد الصلبة للمسلمين في بلاد الشام ومصر وفي كل موقع من العالم الإسلامي . أولئك أقاموا قواعد المسلمين وهؤلاء حافظوا عليها وجميعهم استمدوا من إيمانهم العميق ما يضمن لهم النصر على كل التحديات الخارجية. وهذا هو الاختلاف الأساسي بين المسلمين وبين أعدائهم الذين كانوا شديدي التأثر بالنصر بقدر شدة تأثرهم بالهزيمة . وهذا ما يفسر الجهود الكبيرة التي بذلت لقهر المسلمين عسكرياً ، ثم انهيار البناء العسكري الذي أقامه الفرنج بضربة واحدة . ولقد جاءت هذه الضربة في «حطين» ضد الفرنج ثم جاءت الضربة التالية ضد المغول حلفاء الفرنج ، وجاءت الضربة القاضية بعد ذلك ، ثلاثة ضربات فقط وانهار البناء . وكانت الروح المعنوية العالية للمسلمين هي أساس كل هذه التحولات .

٣ً- القدرة على تحمل الصعاب:

ستة أجيال تعاقبت والحروب الصليبية مستمرة ، ولم تفقد هذه الأجيال أصالتها، ولم تشعر بالملل من الحرب أو تظهر التعب من خوضها . ولم يكن على هذه الأجيال المتعاقبة خوض الصراع واحتمال كره القتال فقط، وإنما كان عليها القيام بالمسيرات الشاقة

الطويلة عبر سيناء ذهاباً وإياباً ، في حر الصيف وقر الشتاء ، في الليل كما في النهار، وتجاوز ذلك للسير من أقصى بلاد الشام في الجنوب حتى أقصاها في الشمال والتوغل عبر أقاليم ما وراء الدروب إلى بلاد القفقاز – والأرمن – والقيام بأعمال الحصار وخوض المعارك ضد قوات شديدة البأس متوافرة القوة تحميها تحصينات قوية وأسوار منيعة . ويشكل التناوب في الأعمال القتالية بين الحروب الدفاعية والحروب الهجومية في حد ذاته نوعاً من الصعوبات التي تنوء بها القوات المقاتلة. كما يشكل التناوب بين الأعمال القتالية في السهول والأعمال القتالية في الجبال صعوبات إضافية مرهقة ، ويشكل التناوب في المناخ أيضاً بين أقاليم الصحارى والأقاليم الباردة في شمال الشام ما يزيد من تلك الصعوبات كلها. ولكن هل كانت هذه هي كل ما جابهه المجاهدون من صعاب ؟..

إن استعراض مسيرة الأحداث يبرز ما تعرض له المسلمون من صعوبات بالغة في تحقيق التوازن بين متطلبات السلم ومتطلبات الحرب، وضمان الموارد الإقتصادية لتأمين متطلبات الحرب، وكان أصعب ما في ذلك كله أيضاً تحمل الصعوبات الناجمة عن التناقضات الداخلية أحياناً، والصعوبات الناجمة عن ظروف العمل تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي . وعلى هذا فإن محصلة الصعاب لم تكن مادية فقط وإنما هي صعوبات مادية – معنوية . ولعل الصعوبات المعنوية كانت تزيد في وطأتها وفي ثقلها على

الصعوبات المادية . وهنـا يظهر من جديد تأثير العامل المعنوي «الايمان» في دعم القدرة على تحمل الصعاب .

٤ً- الانضباط والطاعة :

لقد تميزت فترة قيادة الزنكيين والأيوبيين والمماليك بتعاظم الصراعات الداخلية ، وأعمـال القتل والاغتيال السياسي ، فقد ذهب «ايبك» و «شجرة الدر» و «المظفر قطز» وغيرهم كثيرون نتيجة المطامع والمطامح . وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف مفهوم الانضباط وسيادة مذهب القوة ، وكان سبب ذلك هو غيـاب الشرعية . ولكن ذلك لا ينفي اكتساب مفهوم الانضباط نوعـاً متطوراً من الشرعية التي تضع في اعتبارها متطلبات الظروف المحيطة بالصراع ، **وكان التزام القادة بمبدأ الجهاد هو الذي يدعم سلطتهم الشرعية** ويمنحهم القدرة لاكتساب ثقة جمهور المسلمين ، وفي إطار مفهوم الجهاد كان بالمستطاع فرض الانضباط والطاعة مما تتطلبه ضرورات الحرب. وعلى هذا لم تكن القوة الطاغية للحكام هي التي تفرض وجودهم على المناطق الإسلامية التابعة لهم وإنما كان التزامهم بمبدأ الجهاد والإخلاص له وتخصيص كل الجهد من أجله هو الذي يخلق المناخ الطوعي للانضباط .

ومن الملاحظ أن جماهير المسلمين لم تكن في موقع السلبية من تطورات الأحداث أو التناقضات الداخلية، فقد كانت تظهر طاعتها لمن يمارس دوره بكفاءة أكبر في قيادة الجهاد ، مما كان يدفع القادة للمنافسة من أجل اكتساب ثقة الجماهير . وتلك هي

الطاعة وذلك هو الانضباط اللذان هيمنا على مناخ المجاهدين في الحروب الصليبية. وهو انضباط يبقى في الواقع مرتبطاً بجوهر المفهوم بأكثر مما هو مرتبط بشكل الانضباط وظاهره. فالهدف الدائم هو تنفيذ الأوامر والتعليمات وفقـــاً لمضمونها لا بحسب أشكالها . ومن هنا فإن مضمون الانضباط والطاعة بقي ثابتـاً وفقاً لمعطيات المذهب العسكري الإسلامي .

٥ً– حرية العمل العسكري والسياسي:

وكانت مسيرة الحروب الصليبية تناوباً بين الصراع السياسي والصراع المسلح، ولكن الأمر الواضح هو أن هامش التحرك السياسي كان يتزايد اتساعاً بقدر ما تتزايد حرية العمل العسكري، وكان التحرك السياسي بالمقابل يضيق مع كل تراجع في مجال العمل العسكري . **ويشكل هذا المبدأ في الواقع مبدأ خالداً في العلاقات الدولية**، ولكن الحروب الصليبية أعطت هذا المبدأ كل أبعاده وأبرزته بكل وضوحه .

لقد كان هامش التحرك السياسي ضيقاً قبل معركة حطين بحيث لم يكن باستطاعة قادة المسلمين من الزنكيين فرض إرادتهم على الفرنج. وبعد حطين تزايد هامش التحرك السياسي بما يتناسب والنصر العسكري. ثم جاء انتصار «عين جالوت» ليمنح «بيبرس» هامشاً كبيراً للتحرك السياسي، بحيث أصبح باستطاعة «بيبرس» فرض إرادته على قـادة الفرنج مجتمعين ومنفردين ، ليس ذلك فحسب ، بل إنه أخذ في زيادة هامش حرية العمل العسكري

والسياسي في وقت واحد عن طريق إيجـاد حلفاء من المسلمين وعن طريق إثارة الشقاق بين قادة الفرنج وانتزاع المكاسب منهم لحساب قضية المسلمين .

ويظهر من خلال ما سبق أن «فن الحرب» في فترة الحروب الصليبية بقي محافظاً على كافة الأسس والمبادىء التي طبقها قادة العرب المسلمون في حروبهم منذ بداية الفتح وحتى قيـــام الحروب الصليبية ، وقد جاءت هذه الحروب لإغناء التجارب القتالية للمسلمين (وأبرزها التعامل مـع القلاع والتحصينات) كما جاءت لتثبيت الفضائل الحربية الـتي ميزت المذهب العسكري الإسلامي الذي يعتمد على معطيات ثابتة أبرزها الثلاثية التي سبق عرضها في مناسبات مختلفة وهي :

١ً – وجود جيل من القادة كلهم على درجة عالية من الكفاءة القيادية .

٢ً – التطبيق الرائع للأسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب.

٣ً – توافر أجيال صلبة من المجاهدين في سبيل الله) .

وبذلك أمكن للمسلمين الانتقال من الهزيمة إلى النصر ، والتحرك بعـد ذلك فوق قمم النصر حتى تحقيق هدف الحرب وهو تحرير بلاد المسلمين من كل الغزاة والطامعين .

أيام صليبية

وبعد ، فتلك هي أيام صليبية ، قاتل فيها المسلمون بقيادة «صلاح الدين الأيوبي» حيناً، وبقيادة الزنكيين من قبل و«المظفر قطز» و«بيبرس» من بعد، كلها تنتظم بناظم واحد، في منطلقاتها وفي مسيرتها وفي أهدافها . إنها تنطلق من قاعدة الدفاع عن بلاد المسلمين وحمايتها من الغزاة البرابرة — هؤلاء القادمون من الغرب وأولئك الوافدون من الشرق. وهي تسير في اتجاه واحد — وهو اتجاه الاعتماد على القوة الذاتية وتوفير القدرات للصمود في القتال والاستمرار في الحرب . وكلها تهدف في النهاية إلى تحرير بلاد المسلمين ورفع راية الإسلام .

وقد يصاب المرء بالذهول وهو يطالع تلك الصفحات المشرقة، فالغزاة البرابرة قدموا من الغرب بجموعهم الضخمة لإقامة بناء في أرض المسلمين. والمغول وفدوا من الشرق لتحقيق الهدف ذاته. ورغم قسوة الهجمات المتواقتة في موعدها ، فقد استمرت روح الصمود ، وقاومت مدن الشام رغم معرفتها بما ستتعرض له من تخريب ودمار، ولم تضعف ولم تستسلم ، فهل كان ذلك بفضل القادة الزنكيين أو الأيوبيين أو المماليك أو حتى السلاجقة والأتراك

–القبائل الذهبية من المغول– ؟.. يقيناً لا . فالفضل للمسلمين في بلاد الشام ومصر، إنهم القاعدة الصلبة التي أرغمت كل أولئك القادة على السير في اتجاه التحرير ، لقد تخلى العرب المسلمون عن دورهم القيادي وتركوه لمراكز القوى المتصارعة على القيادات ، وركب هؤلاء الموجة .

ولم يكن العرب المسلمون في الشام ومصر يبتغون زعامة أو دوراً قيادياً بقدر ما كان يهمهم الوصول إلى الهدف الكبير وهو الدفاع عن دين العرب –الإسلام– وحماية بلاد المسلمين من الطامعين فيها . ويتأكد ذلك كله من حقيقة واحدة وهي تبدل مراكز القوى وتنوعها والابقاء على الهدف ذاته مما يدل على أن هذا الهدف كان أقوى من القيادات وأقوى من مراكز القوى ذاتها .

وجاء الصليبيون إلى الشام ومصر –يحملون لواء الصليبية– واعتنق كثير منهم الاسلام. وجاء البرابرة المغول يحملون الوثنية، وخرجوا من الشام وقد انتصر الاسلام . واعتنقت قبائل المغول ذاتهـا الدين الإسلامي . وتلك هي القاعدة الصلبة التي حفظت للعرب المسلمين بلادهم، والتي ضمنت لهم بقاء وجودهم المادي والمعنوي **وكانت مذابح التتار بعد ذلك قاسية إلى درجة لا يمكن وصفها، ولا يمكن تصورها.** وأثارت الحقد، فكان رد الفعل خروج المسلمين عن التسامح الذي عرفت بـه حروبهم وتميزت بـه معاركهم ، **ولكنه حقد دفع إلى الانتقام في حدود الهدف ذاته ، وهو حماية المسلمين . ومن هنا فانها لم تصل أبداً إلى المرحلة الوحشية التي وصلتها أعمال التتار .**

ولا ينتقص ذلك – بداهة – من قدر قـادة المسلمين – من الزنكيين والأيوبيين والمماليك – ولا يحط من قدرهم أو يضعف من كفاءتهم القيادية. فقد ظهر جيل من القادة على مستوى التحدي المفروض. وقد يكون هناك ثمـة اختلاف فيما بينهم من حيث مستوى القدرة ودرجة الكفاءة، إلا أنهم جميعاً تميزوا بوحدة طرائقهم في الصراع السياسي والصراع المسلح. وتبقى «عين جالوت» بعد «حطين» منارة في تاريخ المسلمين، ونقطة تحول حاسمة في مسيرة الصراع ضد أعداء الدين.

ترى هل كان من الأفضل أن يحمل هذا البحث عنوان « أيام صليبية» بدلاً من عنوان «المظفر قطز وعين جالوت» ؟

قد يظهر ذلك للوهلة الأولى، فنصيب «المظفر قطز – ومعركة عين جالوت» من البحث أقل من المساحة الـتي احتلتها أعمال «صلاح الدين الأيوبي» أو أعمال «بيبرس» ولكن هل كان باستطاعة «بيبرس» الرجوع إلى مصر لولا استيلاء «المظفر» على السلطة في مصر وتنحية «ابن ايبك» ؟.. ثم هل كان باستطاعة «بيبرس» تطوير الأعمال القتالية لولا الانتصار الرائع الذي أحرزه «المظفر قطز» في «عين جالوت» ؟..

القضية ليست في مناقشة الاحتمالات، أو طرح الافتراضات ولكن الحقائق كلها تشير إلى أن مـا حدث قبل «عين جالوت» هو الذي مهد لهذا الحدث التاريخي. كما أن أعمال «بيبرس» كانت من نتائج أعمال «المظفر قطز» في «عين جالوت». ومن هنا فليست الأهمية لما يحتله الحدث من مساحة زمنية أو مساحة تاريخية وإنما هي

في (أهمية الحدث ذاته ــ وما تمخض عنه من نتائج) ويبقى «المظفر قطز» و «عين جالوت» في قمة هذا الحدث ويكون من الطبيعي أن يحمل البحث اسمه، بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأخرى.

تبقى القضية الأكثر أهمية في مجــال التعلم من التاريخ (وهو هدف البحث وغايته) هي في التركيز على الوقائع والأحداث بأكثر مما يتم التركيز على السِّيَر وحياة الأفراد، ولو أن الصلة بينهما وثيقة والرابطة قوية . وهذا يبرز أيضاً ضرورة ربط ما حدث في «عين جالوت» بممهداته ونتائجه . وكانت الممهدات والنتائج أكثر اتساعاً وأبعد عمقاً من الحدث ذاته في إطاريه الزمني والمكاني. ويصبح من الطبيعي أن يحتل حدث «عين جالوت» مساحة محدودة هنا في مجال البحث بقدر المساحة التي احتلتها سيرة القائد «المظفر قطز».

لقد قررت معركة «عين جالوت» مصير المغول البرابرة ، بقدر ما قررت مستقبل العرب المسلمين ومستقبلهم فوق أرضهم، وبقدر ما قررت أيضاً مصير الامارات الصليبية التي أقامها الفرنج فوق الأرض الطاهرة من بلاد الشام. ولكن قد يكون من الضروري أيضاً الإشارة إلى مجموعة تلك المقاومات التي واجهتها قوات الغزو فوق كل شبر من الأرض العربية في «ميافارقين» وفي «حلب» وفي دمشق . جاءت ثورة دمشق لتعيق قــائد المغول «كتبغا» بعضاً من الوقت الذي ضمن «للمظفر قطز» مزيداً من حريـــة العمل العسكري في حدود الزمن المتوافر ، وبالإضافة إلى ذلك فقد استنزفت هذه المقاومات المتتالية بعضاً من قوة المغول . كما أن

القاعدة الصلبة للمسلمين والشعور العدائي ضد الغزاة قد وضع التتار في محيط معزول فكانت ضرباتهم في شبه فراغ. ومن هنا تظهر ضرورة وضع المعركة في إطارها العام–السابق واللاحق– قضية أخرى، كان لا بد من طرحها ببعض التفصيل، وهي قضية التنسيق والتعاون بين قوات الفرنج وقوات المغول وما تم خلالها من اتصالات واتفاقات . ومحاولة الفرنج تنظيم «الحرب بالوكالة» وإغراء المغول على الاضطلاع بما عجز الغرب عن تحقيقه .

قد يشعر الإنسان بشعور متناقض من قضية الصراع بين قادة المسلمين ، وما انتهى إليه ذلك الصراع من قتل لقائد معركة «عين جالوت» على يد صنيعته «بيبرس» ولكن ما قام به «بيبرس» من أعمال وما حققه من إنجازات تشفع له عند المسلمين . وتبقى قضية القتل معلقة بين «بيبرس» وخالقه حتى يوم الحساب . وقد استطاع «بيبرس» في الواقع انتزاع إعجاب المسلمين والحصول على محبتهم بعد كره ، لا بسبب أصله كعبد رقيق، فقد تجاوز الإسلام ذلك ، وإنما بسبب غدره بقائد «عين جالوت» وبطلها . .

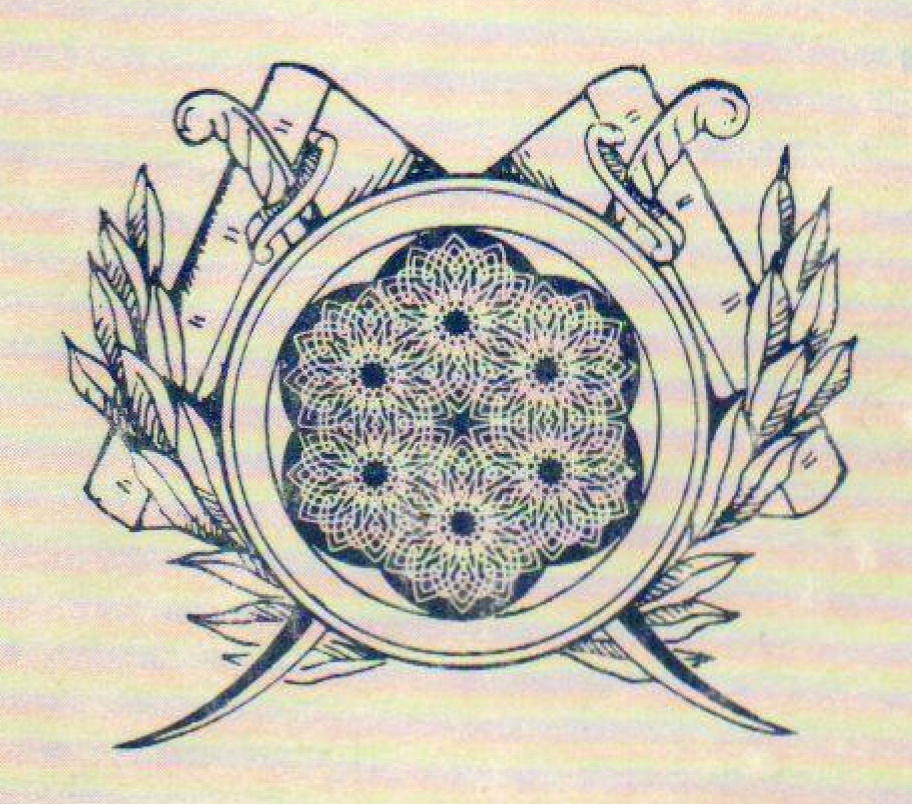
تلك هي بعض صفحات من الأيام الصليبية، وهي صفحات فيها صورة المسلمين في أصعب فترة عاشوها منذ الفتح . وفيها ما هو مشرق وما هو مظلم، ولكن صمود المسلمين وعنادهم وفضائلهم الحربية وقوة إيمانهم قد بعث النور من قلب الظلام فأشرقت الدنيا بانتصارهم، بالرغم من كل ما عانوه، وبالرغم من كل ما تعرضوا له واحتملوه . وتوقفت الايام الصليبية ولا زالت الحرب مستمرة.

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
أبرز الاحداث ما بين حطين وعين جالوت	٩
بعض ما قيل في «عين جالوت»	١٣
الفصل الاول: المظفر قطز والطريق إلى «عين جالوت»	١٥
الحرب طويلة الامد	١٧
آ – الموقف على الجبهة الاسلامية	٢٢
١ً– في دمياط – الملك الكامل	٢٨
٢ً– الصراعات بين الأيوبيين وإعادة بيت المقدس للصليبيين	٣٣
٣ً– الصالح أيوب بعد الكامل	٣٨
٤ً– الجيوش الفرنسية في مصر	٤٣
ب – الموقف على جبهة الصليبيين	٥٤
١ً– الحملة الصليبية الثالثة	٥٨
٢ً– الحملة الصليبية الرابعة (تدمير الامبراطورية البيزنطية)	٦١
٣ً– الحملة الصليبية الخامسة (حملات الأطفال)	٦٦
٤ً– الاتصالات مع التتار (الصليبيون والتتار)	٦٨
٥ً– الأرمن والتتار (المغول)	٧٦

الصفحة	المـوضـوع
٨١	**الفصل الثاني : المغول والمسلمون «عين جالوت»**
٨٢	١ً – المغول والتتار
٩٣	٢ً – المغول في القوقاز وأوروبا
٩٩	٣ً – هولاكو يقود الحرب
١٠٩	٤ً – من بغداد إلى دمشق
١١٦	٥ً – الوضع الخاص قبل عين جالوت
١٢١	٦ً – المظفر قطز وعين جالوت
١٢٦	٧ً – ما بعد عين جالوت (الثأر)
١٤٥	**الفصل الثالث : فن الحرب والحروب الصليبية**
١٥٢	**آ – في الاستراتيجية العليا**
١٥٢	١ً – استراتيجية الهجوم غير المباشر
١٥٤	٢ً – الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة
١٥٦	٣ً – بناء المجتمع وإعادة التنظيم
١٥٧	٤ً – وضوح الهدف
١٥٩	٥ً – الحرص على المسلمين
١٦١	٦ً – استراتيجية الحرب التشتيتية
١٦٤	٧ً – استراتيجية الهجمات الوقائية
١٦٥	**ب – في مبادىء الحرب**
١٦٥	١ً – المباغتة
١٦٧	٢ً – أمن العمل

الموضوع	الصفحة



دار النفائس ص.ب ١١.٦٣٤٧ هاتف ٣٠٢٥٣٨ ـ بيروت